

اقرأ

قلوب الخالدين



إبراهيم المصري

دار المعارف مطبع

رسم الغلاف بريشة يوسف فرنسيس

١٠٠٠	مليم في ليبيا	٥	قرش ج. ع. م.
٧٥	فلساً في العراق والأردن	٦٠	ق. ل.
١٥٠	فرنكاً في المغرب	٧٥	ق. س.
١	ريالاً سمودياً	٦٠	مليماً في السودان
١٢٠	فلساً في الكويت		
١٢٥	مليماً في تونس		

قلوبُ الخالدين



إبراهيم المصري

قلوب الخالدين

صور نفسية وعاطفية لطائفة مختارة
من عظماء الأدب والفن

٢٦٩ | اقرأ

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٦٩ - مايو سنة ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م.

إلى شبابنا

يضم هذا الكتاب صوراً نفسية وعاطفية لطائفة مختارة من العظماء بين رجال ونساء ، عاشوا وأحبوا وتعذبوا ، وكانوا في حبهم وعذابهم وكفاحهم رمز البطولة وعنوان التضحية في سبيل الفكر والأدب والفن .

فالحياة المليئة كانت قبلتهم ، والسمو بها كان غايتهم ، وصدق العزيمة كان سلاحهم ، وإرادة التذوق لأنفسهم وللغير كانت مثلهم الأعلى .

فن هذه الأمثلة الرائعة ذات التألق الأبدي ، يستطيع شبابنا الطامح أن يقيس النور لعقله ، والحياة لقلبه ، والخير لنفسه وللناس .

إبراهيم المصرى



التجربة الفاصلة

« من حياة الروائي الروسي مكسيم جوركى »

« وقعت للكاتب الروسي الشعبي العظيم مكسيم جوركى فى مطلع شبابه مأساة حب غريبة كان لها أعمق الأثر فى توجيه فكره وتكوين شخصيته . وقد صورها أجزاء فى مذكراته ، فجمعها وألفت بينها فى شبه قصة أجريتها على لسان صاحبها » .

قال جوركى :

كنت فى مستهل شبانى واقفا تحت تأثير كاتين كبيرين ، أحدهما تليستوى والآخر فردريك نيتشه . وكنت ميالا بطبيعتى إلى الأول ، أحب الشعب ، وأعطف على الفقراء والبائسين ، وأرى وجوب إقرار العدل والمساواة بين الناس ، وإحلال المحبة والرحمة محل الأنانية والعنف . ولكن عقلى النامى ، وذكاى المتقد ، وشعورى العميق بتفوقى ونبوغى ورغبى الشديدة فى توكيد شخصيتى وإبداع أعمال أدبية عظيمة تخلد اسمى على مر الأجيال ، كل هذه العوامل كانت تشيع فى نفسى البسيطة الساذجة ضرباً من الزهو والكبرياء يقربنى من فردريك نيتشه ، ويحبب إلى تعاليم هذا الفيلسوف لأمانى القائمة على كره المحبة ، وبغض الرحمة ، والسعى إلى التفوق والسيطرة والاستعلاء ، والإشادة بفضائل التخشن والقوة ، واحتقار الضعف والضعفاء .

وكنت من فرط تأثرى بهذا الفيلسوف أو من إيماناً عقلياً راسخاً بأن من حق الإنسان العظيم ، أو الإنسان الذى يصبو إلى العظمة ، أن يعبت

بالقوانين الموضوعية ، ويسخر بالعرف الاجتماعي ، ويسعى لخلق قانونه الخاص الذى يمهّد له سبل التفوق ، بحيث يستطيع أن يرغم الآخرين على احترامه ، ويجبرهم على الاعتراف بقيمته ، ويشعرهم بأن العبقرى مخلوق ممتاز ، وإنسان أعلى ، لا يمكن أن يسرى عليه ما يسرى على سواد الناس من آراء وأفكار وعادات ونظم .

هذه الفكرة الطائشة الجائحة استبدت بى ردىاً من الزمن ، ولأنتنى غروراً وزهواً ، وقطعت الصلة بينى وبين جوهر طبيعتى ، وأحالتنى مخلوقاً قاسياً مستبدّاً ، لا يكثرث للعواطف ، ولا يقيم أى وزن للفضائل الرقيقة الوديعية التى تصار عن القلب البشرى .

وفى غضون هذه الأزمة العقلية النفسية التى عصفت بشبابى ، وأوشكت أن تخمد جذوة قلبى ، وتباعد بينى وبين دنيا العواطف ودنيا الأحلام ودنيا الحب ، التقيت بفتاة ، كانت أول امرأة عرفتها ، وكان حبها الرائع الحارق العجيب هو الذى فصل فى مصير فكرى وفى مصير قلبى وفى مصير حياتى . . .

كانت تدعى ليزا سوكووف ، وكانت ابنة أحد المزارعين الأتقياء ، وكانت فتاة شائقة الحسن ، مشرقة الروح ، ذات عينين زرقاوين صافيتين ، وشعر كستنى جعد ، ووجه بيضاوى كوجوه القديسات ، وصوت ناعم رخيم ، وفيض من الأسى ينسكب من هيكلك نحيل دقيق ، علوى الفتنة ، شعرى المظهر والبهاء .

شغفت حباً بهذه الفلاحة التى كانت تبرز أعرق السيدات أرسقراطية فى نبيل النفس ، ولطف الحس ، ورقة الشعور . شغفت بها ، وأردت فى الوقت نفسه أن تشغف بى ، وأن تسلس قيادها لسلطانى ، كى أمتحن بقربها قوتى ، وأخضعها لحكم شخصيتى ، وأطبق عليها تعاليم أستاذى نيتشه . . .

وكانت الفتاة بريئة القلب والعقل ، فاضرة الإحساس والذهن ، فتفتح فؤادها للحب ، واستفاقت عواطفها على دعوة الحوى ، فاستسلمت بجمع روحها وإيمانها لى .

ولم أكن جميلاً . ولكنى كنت خللاً . كنت أتحدث إليها فيخيل لها أنى أضع العالم بأسره تحت قدميها . وكنت أخرج بها إلى التزهة في الحقول والمروج والوديان ، فتحس لفرط ما يخلع حديثي على الأشياء والأشخاص من خيال وشعر ، أن الكون قد ازداد جمالاً ، وأن فى السماء وعلى الأرض آيات من الحسن كانت تجهلها ، وكانت لا تراها ، فكشفت أنا عنها النقاب ، وصيبت عليها أضواء ساطعة وساحرة يخطف بريقها الأبصار . . وكنت أحب ليزا بكل قوى قلبي وعقلي وجسمي ، ولكنى لم أفكر فى إغوائها . لم يخطر على بالي لحظة واحدة أن انتهك حرمة هيكلها المقدس فأغرر بها وأعبت بعفافها . كنت أنطلق إلى امتلاك قلبها فقط . إلى احتلال هذا القلب والاستئثار به والتصرف فيه . إلى إخضاع هذه النفس لإرادتي ، وتطويعها لمشيتي ، والشعور حيالها بمتعة القوة والسيطرة والتفوق التى ولدتها فى نفسى تعاليم الفيلسوف الألمانى أستاذى .

واطمأنت ليزا الى وثقتى فى . أحببتنى بكل طهرها ونقاها وجعلت تعلق نفسها بأن تصبح يوماً زوجتى . ولكنى أبيت أن أتقيد بأى وعد صريح ، ومضيت أحاور وأداور ، وأعرض وأقبل ، وأفتن فى ابتكار وسائل الجذب والإغراء ، حتى اشتد وابع الفتاة بى ، وفنيت عواطفها وأفكارها فى حبي وأصبحت ناضجة للتجربة الحلقية والنفسية التى عزمت أن أطبقها عليها ، وأسومها عذاباتها ، تحقيقاً لحلمى . وتنفيذاً لمبادئى . . والواقع أنى كنت إذ ذاك شاذ الميول والأهواء . كان تأثير نيتشه قد استحوز على وأفسد خلالي الطيبة فأردت أن أمتحن قوى لأعلم ليزا معنى القوة والتفوق وأجعل منها هى الأخرى تلميذة لأستاذى .

وشرعت أقسو عليها لأعلمها كيف تقسو على نفسها وعلى الآخرين .
 فرضت عليها البساطة المطلقة في ملبسها ، والتجرد من كل أناقة وكل تبرج
 وكل رواء . زينت لها الخشونة باعتبارها رأس الفضائل . أغريتها بالكبر
 والصلف والاعتداد وألقيت في روعها أن هذه الرذائل هي التي تميز الإنسان
 الأعلى . دفعتها إلى ازدراء الفلاحين ، والسخرية منهم ، والترفع عليهم .
 رضىها على احتقار الضعيف وعلى التحفظ الجامد الشامخ مع من هم دونها
 في المركز الاجتماعى . دربتها على غطرسة الأرستقراطيين وعجرفتهم .
 أجبرتها على المشى الطويل ، والعمل المرهق ، وتحمل الجوع والظمأ
 كي تألف التقشف ويصبح في مقدورها أن تكون سيدة نفسها وسيدة
 الآخرين .

وكانت ليزا العاشقة الصابرة المدلثة ، تعتقد أن هذه هي أخلاقى ،
 فكانت تطيعني حباً فيّ ، ومرضاة لى ، وتدليلاً على إخلاصها المطلق
 ووفائها العميق .

ولم أكن لأقدر صدق حبها بقدر ما كنت أعجب بسلطان إرادتى
 عليها . كنت لا أنظر إلى المرأة نفسها بل إلى أثرى الواضح فيها . كنت
 لا أنظر إلى قلبها الذى يحبني بل إلى عقلها الذى كان يجاهد تحت تأثير
 حبها كى يحاكينى ويقتدى لى .

وزهانى هذا النصر ، وشعرت بلذة غريبة نادرة لم أشعر بها عمري .
 لذة التحكم في فتاة جميلة ، ولذة التسلط على نفس بريئة ، ولذة صياغة
 شخصية وإبداع فكر وخلق روح .

ومع ذلك فقد لبثت أعتقد أنى ما زلت أواجه ليزا الفلاحة الساذجة
 الطيبة ، وأن علىّ أيضاً أن أروضها ، وعلىّ أيضاً أن أعلمها ، وعلىّ أيضاً
 أن أصوغها ، كى أبداع منها مثلى العقلى الرائع المنشود .
 ومن فرط غرورى بنفسى ، وابتهاجى بفوزى ، وفرحى بطاعة الفتاة

لى ، لم أستطع أن أتبين أول الأمر على وجه الدقة عظم التحول الذى طرأ على أخلاقها .

وفجأة ، وفى مثل لمح الطرف أو خطف البرق ، وجدتني أمام فتاة أخرى . تبدل كل شيء فى شخصية ليزا . نفضت عن كيانها غبار الضعف وأصبحت مخلوقاً من عقل مجرد . زابتها عذوبة صوتها ، ودماثة أخلاقها ، ورقة حديثها ، وجاذبية وداعتها . نشطت أعصابها ، واحتدمت قواها ، واتقد عقلها ، فغلظ لمبها ، وتحجرت عواطفها ، وغادرتها تلك الطيبة الصافية الساكنة الساحرة التى كانت مبعث فتنها وسر جمالها .

كانت أنثى فاستحالت إلى إنسان لاهو بالذكر ولا بالأنثى . استحالت إلى منطق صارم جاف ، وفكر مستبد عنيد ، وعقل ضيق متغطرس . فكانت تسرف فى التكبر على الناس ، وتسرف فى تحقير الجهلة وأنصاف المتعلمين ، وتسرف فى اضطهاد الخدم ، وتسرف فى القسوة على الفلاحين الأجراء . وكانت فوق ذلك تستبد بشخصها هى أيضاً ، وتحمل نفسها فوق طاقتها . فتصوم عن الأكل الساعات الطويلة ، وترتدى الأنواب العاطلة الخشنة ، ولا تلزم الفراش إذا مرضت ، ولا تستقدم طبيباً ، ولا تعتمد على أحد فى دفع الأذى عنها ، أو فى تأدية واجب مفروض عليها ، أو فى معاونتها فى أى عمل من أعمال البيت .

وليس شك فى أن ليزا اكتسبت من تعاليمى وتعاليم نيتشه فضائل ذات قيمة ملحوظة فى الحياة . ولكنها لفرط ما أرادت أن تروق فى عيني بالغت فى تأكيد تلك الفضائل ، فشوهتها ، وخرجت بها عن معناها ، وأضافت إليها ما ليس منها . وهكذا بدت لى هى وفضائلها ، هى وتعاليمى ، فى سلسلة من الصور المتكررة الدميعة المسوخة ، روعتني وألقت فى فؤادى شتى عوامل القلق والاضطراب والذعر .

وتبدد طيفها الأول ، وانهار هيكلها الجميل ، وانعقد حولها جو كثيف

من الكتابة والجهامة والصرامة ، قتل فرحها الغرير ، وخنق شعورها الحالم ، وأجهز على البقية الباقية من سحرها العذرى الذى فتننى ، والذى عرف قلبى من خلاله معنى الجمال ، ومعنى الحب ، ومعنى الحياة .

ولم أستطع إلا أن أنظر إليها وأنا أرتعد . كرهت فيها المخلوق الحديد الذى ابتدعته يدى . أبغضت فيها الصورة الشائنة التى رسمها عقلى . لعنت فيها النزعة الشاذة الأثيمة التى أولع بها خيالى . وكنت أتمرد وأثور وأتمرق إذ أبصرها تنهر خادماً أميناً ، أو تظلم فلاحاً مسكيناً ، أو تنهال ضرباً على طفل صغير لأنه تجاسر واقتحم حديقة بيتها ، وقطف منها ثمرة أوزهرة . وشيئاً فشيئاً ، وعلى مر الزمن ، بدأت أتبين الأشياء بأضدادها ، وألمس خطر مبادئى ، واراها كيف تنقلب إلى رذائل وشرور عندما تطبق على الواقع المحسوس .

وفى ضوء التحول الذى طرأ على شخصية ليزا ، استفاقت شخصيتى انا ، وتحرك جوهرها الأصيل ، وشرع يملأ نفسى ، وينتشر فى جوانب فكرى ، ويبيكت ضميرى ، ويفعمنى شعوراً بالأسى ، وميلاً إلى الندم والتوبة . وبينما كانت ليزا تقسو على الضعفاء كنت أشعر أنا بالشفقة عليهم . وبينما كانت تنهرهم كنت أود أنا أن أستغفرهم . وبينما كانت تظلم أو تضرب أحدهم كنت أنا أتمنى لو استطعت أن أذود عنه ، وأطيب خاطره ، وأقبل فى خشوع واتضاع موطئ قدميه . .

ثبت إلى رشدى وصحوت . ارتددت إلى طبيعتى وأدركت . أما ليزا فقد أبت إلا أن تبقى حيث أردت لها فى مبدأ الأمر أن تكون . عبثاً حاولت أن أصدها عن تيارها . عبثاً حاولت أن أردّها عن غيها . عبثاً حاولت أن أقنعها أنى كنت مخطئاً ومذنباً وأحمق وطائشاً ومجنوناً . . لم تصدقنى . . أوجست خيفة منى . . خشيت إن هى ارتدت إلى طبيعتها الأولى أن أعود فأنفر منها وأكرهها وأغدر بها . .

والعجيب أنها هي بدأت تلومني على ضعفي ، وتسخر من طيبة قلبي ،
وتدفعني إلى الاقتداء بها ، وتحذرنني من عقبي العواطف الرخوة الناعمة
المستخذية ، وتمجد أمامي فضائل القوة الغاشمة باعتبارها مثلاً أعلى .

وعندئذ هلع قلبي ، وارتعدت فرائصي ، ورأيت في ليزا الجديدة
نقيضي ، وأيقنت أني مهما حاولت ومهما جاهدت فلن أستطيع أن أبدلها مرة
أخرى ، ولن أستطيع أن أحب فيها الصورة التي خلقتها أنا ، والتي أصبحت
بالرغم مني أكرهها ، وأمقتها ، وأرى فيها رمز الرذيلة وعنوان الإثم والشر
واستهولت الفتاة تحول ، واستغربت انقلاب الطائر ، وحارت
وذملت ، واستحوذ عليها يأس مروع مخبول .

كانت لا تدري ماذا فعلت ، وأي ذنب جنت ، وكيف ترائي ،
وأين ترائي ، وفي أية بقعة من الأرض يمكن أن تتصل بي . . احتجبت
عنها . فررت منها . سافرت فجأة إلى موسكو . لم أودعها بكلمة ولم أبعث
إليها بأى خطاب . فجن جنونها واقتحمت داري وسألت عني . ولكن
أهلى انتهروها وأوصدوا بابهم دونها ، ففضحت حبها ، وابتذلت نفسها ،
وأراقت ماء وجهها ، وراحت تستفسر عني من أقاربي وأصدقائي ،
وتتوسل إليهم أن يرشدوها إلى مكمنى ولكن على غير جدوى .

وإذ ذاك فقدت حكمها على نفسها ، وعلى أعصابها ، فانخلع
كيانها المعنوي ، واستوحشت ، ونفرت من الناس ، وهامت بالعزلة ،
وأصيبت بشبه نورستانيا .

وتطورت شخصيتها تحت تأثير حسرتها وخيبتها ويأسها ، فانتجعت
بأفكارها وعواطفها وجهة دينية محضة ، فكان يبلغني أنها تصوم وتصلي ،
وتتقضى في الكنائس نصف نهارها ، وتشارك العوانس في اعمال البر ،
وتعيش في عالم روحاني علوى وجدت فيه العزاء والسلوى .

وحز في صدري أن أكون أنا السبب في حرمان تلك الفتاة من التمتع

بحظها في هذه الدنيا ، فحزمت أمرى ذات صباح وعدت إلى القرية . . .
ولكني قبل أن أصل إليها وقبل أن أرى حبيبتى ، كانت ليزا قد
خرجت من بيتها ، وارتدت ثوباً أسود ، وأرخت على وجهها نقاباً كثيفاً ،
واتجهت بخطى ثابتة صوب دير للراهبات كائن في أقصى القرية .

فلما بلغنى النبأ ، تاه فكرى ، وتفطر قلبي ، ورزحت تحت عبء
مستولي ، وانطلقت من فوري كمعتوه ، واتصلت برئيسة الدير ، والتست
منها أن ترحمنى وتشفق علىّ وتسمح لى بمقابلة ليزا . . . ولكن ليزا كانت
قد ودعت الحياة ، ونذرت العفة ، وأصبحت عروساً للمسيح ، فرفضت
مقابلتى وأبت أن ترانى وأرسلت تقول لى إنها لن تكف عن الصلاة من
أجلي ، والابتهاال إلى الله أن يغفر لى ولها . . .

وظللت واقفاً بباب الدير أستجدى الرحمة ، ولكن الرئيسة انصرفت
وتركننى . فتقطعت نياط قلبي وأحسست كأن يداً قوية تخنقنى ،
فهممت بأن اصرخ ، ولكن سكون الدير أذهلنى ، وجلاله أرعبنى ،
فحنيت رأسى محطماً متهالكاً ، وخرجت وقد انفجرت من عيني الدموع !

* * *

ولبت خاضعاً لطيف ليزا كما يخضع الإنسان لقدر محتوم يخلق
أبداً عليه . لم أستطع أن أنساها . لم أحبب غيرها . آمنت أنها هى التى
أيقظت فى نفسى روح المحبة ، وعلمتنى معنى الرحمة ، فأليت على
نفسى أن أمجدها فى عملى ، وأن أخلدها فى فكرى ، وأن أكفر عن ذنبى
بوضع عقلى وقلبي وفنى وعقبريتى ، فى خدمة كل مسكين ضعيف ،
وكل بائس محروم من أبناء البشر إخوتى .

وهكذا عشت فى ظل ليزا . وهكذا سأعيش أيضاً فى ظلها ،
مكافحاً مجاهداً مستبسلاً ، حتى آخر نسمة من حياتى التى قدمتها للشعب
قرباناً ، كما قدمت ليزا حبها وشبابها وحياتها قرباناً إلى الله ! . .

ضمير العبقرى

« من حياة الشاعر الروسى بوشكين »

« للناقد الفرنسى جورج مجلوار كتاب شائق عن حياة الشاعر ألكسندر بوشكين الذى يعتبر أعظم شعراء روسيا ، والذى كان جده لأمه حبشياً من رقيق القيصر . وقد طالعت هذا الكتاب فعثرت فيه على عدة اعترافات كتبها الشاعر نفسه ، وصور فيها شبابه ومأساة حبه الأول ، وكيف بدلت تلك المأساة المروعة اتجاه فكره وأيقظت عبقريته وأرشدته إلى معنى الحياة » .

قال بوشكين :

الشباب لا يرى غير قوته . قوة أعصابه وعضلاته وحيويته ، وهذه القوة تدنيه من الحياة وفى الوقت نفسه تقصيه عنها . فهو يندمج فيها ، ويفرح بها ، ويهمل لها ، ويكافح ويناضل مؤكداً قانونها . ولكن سحرها يذهله ، وهديرها يفتنه ، وأضواءها الساطعة تبهره ، وقد تختم فى معظم الأحيان على بصره ، فتختلط عليه الأمور ، فيعجز فى النهاية عن التفريق بين النور والظلمة ، وبين الخير والشر ، وبين السعادة والشقاء .

وهذا ما وقع لى .

كنت فى مطلع شبابه فتى نزقاً طائشاً أسرف فى اللهو والميلذات ، وأعيش كعنصر جامح لا يعرف الهدوء أو الاعتدال . وكنت أبى النفس ، سخى اليد ، على الهمة ، مولعاً أشد الواع بأخلاق فرسان القرون الوسطى ، أنفق على النساء فى سعة ، وأهب لنصرة المرأة المظلومة ، وأبادر لنجدة

الضعيف ، وأحسن إلى الفقراء ، وأجود بنفسى رخيصة فى سبيل كل من يلودى .

وكان يتنازع قلبى حب الشجاعة ، وحب الرحمة ، وحب اللهو . لذلك تعلق بى الرجال والنساء جميعاً ، ورأوا فى مثلاً رائعاً لما يجب أن يكون عليه الشاعر العبقرى . ولم أكن قد نظمت بعد قصائد عظيمة . كان شعرى محض تأوهات زائفة ، وأخيلة تافهة ، ومعان شائعة رخيصة ، وتأملات غثة سقيمة جوفاء .

وكان الدم الحبشى الجارى فى عروقى يلهب عواطفى ، ويضرم نار الظمأ فى حواسى ، ويلقى بى فى تيار الملذات متقد النشاط والحيوية . وكنت أرى نفسى إذ أجلس إلى رفاقى فى الحانات ، أتكلم وكأنى أصرخ ، وأضحك وكأنى أقهقه . وأجرع الخمر وكأنى أعب فى ماء قراح . على أنى كنت أكره الخمر من صميم قلبى ، وأحاول ما استطعت ان أقصى إغراءها . ولكنها كانت تطاردنى ، وتحتل فكرى ، وتمثل لى الكون فى حلل ساحرة فاتنة ، فأقبل عليها بالرغم منى وأنا ألغنها وأغالبتها ، وأبذل قصارى الجهد كى أتححر منها . أما الحب فقد كان فى نظرى نداء غريزياً طبيعياً ، يجمله البدن الناضر ، والخلق الضاحك ، وأخيلة الشعراء وأحلامهم وأناشيدهم . وأما ذلك الحب العابس المتجهم الباكى ، المنبعث من عصب ضعيف ، وجسم هزيل ، ونفس مهزومة ، وعزيمة خائرة ، فقد كان أبغض العواطف إلى نفسى الصاخبة الجاثشة الهادرة .

والحق أن انصرافى إلى اللهو كان يلقى فى روع أصدقائى أن الرحمة والطيبة والعطف والحنان ، فضائل دخيلة على شخصيتى ، وأن طبيعتى الأصلية هى طبيعة أمير عابث مستهتر ، أو جندى باسل قاس ، أو فيلسوف ساخر يتطلع بين آونة وأخرى إلى تمثيل دور بطل . .

وكانت « روزا إيفانوفنا » تحببى وتبأى أن تصارحنى بهذا الحب خشية

أن أزجرها أو أهزأ بها أو أقابلها بكبرى الصامت المحترق الفظيع .
كانت تعتقد اعتقاداً راسخاً أنى لا أحب غير نفسى . ولا أشد
غير متعنى ، ولا أعرف للثبات معنى ، ولا للتضحية قيمة ، ولا للإخلاص
فائدة . . ومع ذلك فقد كانت تعجب بى وتؤمن بأنى عبقرى ، وتحفظ
أشعارى الغثة عن ظهر قلب ، وتكاد تقدسنى وتعبدنى كلما بادرت
لإنصاف مظلوم ، أو سعت لنصرة ضعيف .

وكان الفارق عظيماً ، والهوة سحيقة بينها وبينى . كانت روزا من
بنات الهوى التاعسات الشريدات اللواتى يقضين النهار فى النوم ، والليل
فى الشوارع والحانات . ولقد عضها الفقر بنابه ، واختطف الموت أبويها
البائسين وهى طفلة ، فكفلتها عمه غليظة القلب ، واضطهدتها واستبدت
بها ، فلاذت بفتى موه عليها الحب ، ثم أغواها وخدعها وانصرف عنها ،
فزلت بها القدم فهوت إلى حيث الضعة الشائنة والتبدل البغيض .

ولكن روزا الشقية ، ذات الحسن المستباح ، كانت تكره مهنتها ،
وتكره حفظها ، ولا تبيع ذاتها إلا بالقدر الذى يحفظ عليها حياتها ، معللة
نفسها بالخلاص على يد رجل طيب ونبيل ، يقدر استعدادها للندم
والتوبة ، ويرضى بأن يتخذ منها قرينة له .

هذه الأحلام وغيرها كانت تجول ولا شك بذهنها كلما التقت بى
فى إحدى الحانات . وعندئذ كنت أراها ورأسها مسند إلى كتفها ، وكأس
الخمر أمامها ، تحديق إلى "تحديقاً ممزقاً متأملاً طويلاً وأنا أتحدث إلى
رفاقى ، واضحك وأفقهه . بيد أنها لم تخرج أبداً عن تحفظها ،
ولم تكاشفنى أبداً بدخيلة قلبها ، ولم تجسر أبداً على رفع بصرها إلى مرة
واحدة فى جرأة صريحة مغامرة . كانت حزينة ، وكانت بائسة ، وكانت
لوعة فؤادها تجذبني إليها ، كأنى كنت أسمع من نظرات عينها همس
روحها . . وكانت فى نحو الرابعة والعشرين ، شقراء الشعر ، تلعاء

الجديد ، واسعة الخدقتين ، شاحبة الوجنتين ، تحيط بعينها هالة زرقاء
تم عن فرط الأسى والتعب والهم .

والعجيب فيها أن إيمانها بالله كان عظيماً ، وتقواها كانت مضرب
الأمثال . فتأثرت أنا بذلك المزيج الغريب من الشر والخير ، والرذيلة
والفضيلة ، والظلمة والنور ، وجهنم والسماء . . تأثرت بعقلي لا بروحي ،
تأثرت ولكني لم أحب . لم أعشق ، لم أحس نحوروزا بتلك العاطفة المجنحة
التي يسميها الناس الحب . . على أن شفقتي كانت عظيمة ، فليبت
نداء الفتاة وقربتها إلى . . فذهلت واختبلت ولم تعد تسعها الدنيا .

وهكذا استماني حبها الصامت المضطرم العميق ، وأثر في
نفسى استعدادها للتوبة ، فرق طبعي ، ولأن خلقي ، وبادلتها الحب تصدقاً
عليها ورحمة بها .

وما كادت تلمس تحولى حتى وثقت في وطلقت مهنتها الشائنة
وانقطعت لحبي أسعد ما تكون بالنصر الذي خيل إليها أنها قد أحرزته
على . .

وبدأت حياة جديدة لم أكن قط لأتصورها أو أعتقد أن في وسعي
احتمالها . . أرادت روزا أن تستأثر بي . . أن تصرفني عن غيرها من
النساء . . أن تجعلني ملكاً لها . فكنت أتخطب بين الأنانية والرحمة ، بين
الثورة والهدوء ، بين التمرد والاستسلام ، وأنا أسخط على نفسي ،
ولا أعرف كيف أحطم قيدي ، وكيف أسترد شجاعتي وحريتي . . وكنت
مبذراً متلافياً ، وكانت روزا قد جمعت من مهنتها الشائنة مبلغاً كبيراً من
المال ، حرصت عليه أشد الحرص وأرادت أن تجعل منه في يوم من
الأيام بائنة لها تمنحها للرجل الذي يحبها ويرضى بأن يصبح زوجاً لها .
فلكى ترصيني وتسعدني عرضت على أن أتصرف في مالها كيف شئت .

ولكنى أبيت أن أمد إلى هذا المال الحرام يدي . لم أفكر لحظة في استيادته وتبديده لأنى لم أكن قد فكرت لحظة في الزواج من روزا واتخاذها حليمة لى . وكيف كان يمكننى أن أفكر في الزواج من هذه الفتاة الساقطة البائسة وأنا أحمل في قلبي حباً آخر كان يعذبني ويضني ويملأ حياتي ذلاً وحسرة ، ويمثل في نظري كل مباهج العاطفة وكل مناعم الحياة ؟ !

يا له من شقاء فظيع ذلك الذى احتملته في تلك الآونة من حياتي . كنت أعطف على روزا وكنت أحب سواها . كنت أميل إليها وكنت أنزع إلى غيرها . كنت أود أن أكون صريحاً مع نفسي مستقيماً تجاه فكري وعواطفى ، ولكن ميولى وأهوائى التزاعة إلى المجد ، التواقة إلى العظمة ، المفتونة بشتى ألوان الترف والنعم ، كانت تدفعني إلى خيانة نفسي وخيانة الفتاة المسكينة والاستسلام لذلك الحب الذى أخفيته عنها وعن أبصار الجميع ..

ليتني قطعت صلاتي بالماضى عندما عرفت روزا .. لم أستطع . كنت أظهر لها الحب مدفوعاً بعامل الشفقة وكنت في الوقت نفسه أغشى المجتمعات الكبيرة . وأتصل بالسيدات النبيلات . وأعشق امرأة منهم بديعة الحسن تدعى « الكونتس جروتشا » .

وكانت هذه المرأة آية في الجمال . كانت تشبه دمية من دمي الإغريق . كانت فينوس بعينها . وكنت أعبد شعرها الأسود المموج ، وعينها الناعستين ، وخديها الموردين ، وفتنة بدنهما اللين الغض المنسجم انسجاماً لا أثر فيه ولا شبهة عليه من تأثير الزمن . أجل كنت أعبدها ولكنها كانت أشبه ببحر تبتلع أعماقه كل ما استطعت أن ألقى فيه من مال . ولقد ألقيت في أعماق هذا البحر بكل مالى وكل ما كان يمكن أن يقع في قبضة يدي عساي أظفر من تلك الآلهة ولو بقبلة . ولكنى كنت أنفق وكانت تعرض ، وكنت أسخو وكانت تنجني ، حتى أعيتني الحيل ،

فطرت باب روزا إيفانوفنا وأنا أرتجف وأبكي . .
هرعت إليها وتعللت بدين من ديون الميسر يجب أن أفيه حالاً حرصاً
على شرفي ، وطلبت منها مالا . . فلم تتردد الفتاة وأعطتني نصف
ما تملك . .

وأخذت المال وأسرعت إلى الكونتس . لوحت لها به فأبرقت أساريرها
غبطة وفرحاً ، فطار لبي وشرعت أنفق عليها بلا حساب ، فعادت تلك
الغادة الماكرة الحبيثة اللعوب تلاطفني وتقربني وتمنيني . . فتجدد أمل ،
وانصرفت إليها غير مكترث للفتاة المنكودة الحظ التي كانت تتحرق في
وحدتها ، وتدعوني ، وتنتظر مقدمي بفارغ الصبر .

وكانت الكونتس شأن معظم المترفات من أهل طبقها ، شغوفاً
بسباق الجياد ، تراهن عليها ، وتركن إلى المعجبين والعشاق ساعة الفشل
في سداد خسائرها ، فاتفق أن راهنت وخسرت ، فلجأت إلى ، فاعتقدت أنا
أنها خير فرصة للظفر بها ، فعددت العزم على أن أساومها بالمال وأخضعها ،
ويمت وجهي مرة أخرى شطر روزا . .

وكانت تلك الساعة أخط وأقسى ساعات حياتي . كانت رغبتي
الجارفة العاتية في إخضاع الكونتس ، هذه الرغبة المنبعثة من كبريائي
المطعونة ، أشد تأثيراً في واستبداداً بي من عواطف الشهامة والنخوة
والرحمة ، التي كنت أحس بها نحو روزا . .

وجاءت الفتاة بالمنديل الذي كانت قد جمعت فيه بقية مالها ،
وفكت عقدهته وهي ترتعش ، ثم ناولتني كل ما تملك ثم فاضت عيناها
بالدموع .

ذكرتني بماضيتها الأسر وحاضرها الفاجع ، والمستقبل المظلم الذي
ينتظرها إذا أنا انكرتها في الغد ، وخذعتها ، ولم أرد إليها مالها ولم أتزوجها .

ولكننى هوتت عليها ، وطيبت خاطرها ، ووعدتها بالكف عن مزاوله
الميسر والاقتران وشيكاً بها . فتهلل محيا الفتاة ، وألقت بنفسها على صدرى ،
وظفقت تردد بصوت ممزق متحشرج خنفته العبرات : لا تتخل عني !
لا تتخل عني بعد أن أنقذتنى ! . . أريد أن أصبح زوجتك لأمحو عارى ،
وأؤكد توبتى ، وأسترد أمام الله والناس شرفى ومكانتى ! . .
وكان صوتها الممزق يمزقنى ، ويفرى عظامى ، ويحطم بدنى ،
فدست المبلغ فى جيبى ، ونظرت إليها نظرة طويلة ثم انحنيت عليها
وعانقتها شاكراً وانصرفت .

انصرفت وأنا أبغض شخصى ، وأرتعد فرقاً من إسفاف ضميرى ،
وأشعر أنى مجلل بعار أفطع ألف مرة من العار الذى كان يغمر روزاً أيام
كانت تبيع محاسنها فى سوق الرذيلة والإم .

وغشيت الكتابة نفسى ، واستولى على الشرود ، وبت لا أدرى بأى
وجه أقابل الفتاة ، وبأى لسان أخاطبها ، وبأية قوة معنوية أستر خجلي
وأحجب دناءتى وأستطيع أن أمضى فى تمثيل دورى المنكر الحقير . .
وبدأت هذه العواطف تتحرك فى قلبى وتتراكض فى فكرى ، وتوشك
أن تنطلق من صدرى فى قصائد من الشعر النابض المختلج الحى .
ولكننى كنت كلما هممت بالكتابة ، كبر على أن أسجل فى شعرى
إحساسى العميق بالحزى والعار . فكنت ألقى بالقلم جانباً ، وأخفق
عواطفى ، وأظلمها تماماً فى الشوارع ألتمس متنفساً لضميرى على غير جدوى . .
على أن هذه الأيام المبرحة لم تحل بينى وبين الذهاب إلى الكونتس .
كان حى أقوى من ضميرى ، وأملى أقوى من رحمتى ، وكبريائى أقوى
من شهامتى ، فأعرضت عن روزا ولم أزرها ثلاثة أسابيع كاملة .
واندفعت أنفق مالها على الكونتس فى قسوة وضبعة وفى عدم اكتراث دناء .
وترامى إلى من بعض الرفاق أن روزا وقد أدهشها احتجائى ، وأقلعها

إعراضى وحيرها تصرفى ، بدأت تبحث عنى ، وتفتنى أثرى ، وتفكر فى اقتحام دارى وتحاول أن تعرف أين أنفق مالها وعلى من أنفقه . بيد أنى لم أحفل بها . نسيته تماماً . كنت منصرفاً بجمعى إلى الكونتس ، أحاورها وتحاورنى ، وأغالبلها وتغالبنى ، وأجاهد كى أحطم ثباتها وجفاءها بعنادى وإصرارى ، بعد أن أنفقت عليها مال روزا ، وأصبحت خاوى الوفاض إلا من حبى ورغبتى وجنونى . . أجل . أنفقت المال ولم أفر بشئ ، فزادنى العجز لوعة ، والإملاق حسرة ، واليأس مرارة وسخطاً وحنناً ، ولكنى بدل أن أبغض الكونتس التى احتالت علىّ وهزأت بى وأعرضت عنى ، أمعنت فى حبها ، وبدل أن أفر منها تهالكت عليها ، ومضيت أقترض المال من أصدقائى كى أحتفظ بمظهرى الأنيق وأستطيع أن أحظى بنعمة التردد على صالونها . .

وتمثلت لى الكونتس شيئاً نادراً ، شيئاً ثميناً ، شيئاً عظيماً ، شيئاً أعظم من أن يكون لى ، وأرفع من أن تستطيع أن تمسه يدي . فتضاعف شقاؤى ، وتضاعف حبى ، وأصبحت كالعبد الذليل ، أطوف بها ، وألازمها كظلها ، وأترامى تحت قدميها ، وأقنع منها بالنظر المتأمل المتلهف الصامت ، وأنا أعلم علم اليقين أنى ما دمت لا أملك ثروة طائلة ، فمن المحال أن أظفر منها بما ينفع غليلى ويهدئ ثورق . .

ومع ذلك فقد رضيت بذلى . كنت سعيداً بوجودى معها ، أصبح فى جوها ، وأنشقت من عبيرها ، وأحاول أن أنظم الشعر فيها فأور على فرحة الشعر والفن فرحة الحياة بجوارها .

ولبثت اتقلب فى غمرة هذا النعم ، لا أفكر فى روزا ، ولا أخطرها على بالى ، حتى وقع ما لم يكن فى الحسبان .

كانت الفتاة ترقبى ، وتفتنى أثرى ، وتعد على خطواتى وأنا لا أعلم . وفى ذات ليلة ، وبينما كنت خارجاً من قصر الكونتس ، أترنح وأهذى

كالشارب الثمل ، برزت إلى روزا في منعطف الطريق ، وقطعت على سبيلي ، وصارحتني وهي ترتعد ألماً وغضباً واستنكاراً ، أنها وقفت على سرى ، وعلمت بعلاقتي ، ورأتني في صحبة الكونتس في أحد المسارح ، وأدركت أنني سلبتها مالها لأنفقته على تلك المرأة التي تزعم أنها نبيلة وشريفة وما هي في الحق إلا غانية مهتكة فاجرة .

وحاولت أن أسكن من روعها ، ولكنها ثارت ثورة هائلة أذهلتني . التوت شفتها ، واندلعت عيناها ، وتقبض وجهها ، وزايلها ذلك الصفوف الرقيق الوديع الذي كان قد أثار شفقتي عليها ، وحلت محله نقمة في النظر ، وغلظة في الصوت ، ووحشية مروعة في الكلام . . .

اختفت المرأة المسكينة الطيبة ، وظهرت بنت الشارع الفقيرة البائسة ، العارفة بقيمة المال ، المتأهبة للإقدام على كل شيء في سبيل استرداد حقها المسلوب .

وقالت وبصرها يقدر الشرر : من يرضى بي زوجة دون نقود ؟ .
إما أن تتزوجني وأما أن ترد إلى نقودي ! . . لن أسمح لك أبداً بهدم مستقبلتي وحياتي ! . .

ووقفت تجاهي ويدها على خاصرتها ، تتمايل ذات اليمين وذات اليسار ، وهي تنظر إلى متحدية وتلهث . . .

فنفرت فيها وأنا أرتجف وقلت : سأجد المال غداً . . سأرد إليك المال غداً ! . .

فصاحت : إذن فلن تتزوجني !
فهورت وقلت لها وقد ظننت أنني بالعقل والصرامة والتزاهة أستطيع أن أردّها إلى صوابها وأصرفها : إني أحب الكونتس يا روزا . . هذا شيء أقوى مني . . اعتقدت أن في وسعي أن أنساها بقربك ولكنني كنت ، وأأسفاه ، واهماً ! . .

فلمعت عيناها وقالت : كيف طاوعك ضميرك على أن تخفى عني
علاقتك بها ؟ لقد خدعتنى ، وابترزت مالى ، وأنفقته عليها . . وأنا . .
أعطيتك كل شىء ، مالى ونفسى ، ثقة منى فيك ، وإيماناً بنبلك
وشهامتك ! . . لقد ضحيت فى سبيلك بأعز وأغلى ما أملك . . فاذا كر
تضحيتى : واذكر ولائى ، وثب إلى رشدك وتخل عن تلك الفاجرة التى
لا بد أن تعذبك وتشقيك ! . . عد إلى . . أنا لا أريد المال ، إنما
أريدك أنت ! . .

وأحسست أنها قد استضعفت ، فتماديت فى قسوقى وقلت : ليس
فى مقدورى أن أبذل عواطفى وإذا كنت قد خدعتك بالأمس ، فأنا
أنشد صفحك وغفرانك ، وأخشى إن عدت إليك أن أخدعك غداً . !
فصرخت : ألى هذا الحد تحب تلك المرأة ؟
فرددت : هذا أقوى منى !

وعندئذ ، قطبت الفتاة حاجبيها ، وعضت بأسنانها على شفتيها
المرتعشتين ، وصاحت وقد ارتدت إليها وحشيها : إذن فلا بد أن
أراها ! . . أريد أن أراها . . إنها رائعة الجمال ، وأنا أريد أن أراها
لأستمع بالنظر إلى جماها الذى سحرك وقتلتى !
فبهت وقلت : أجنونة أنت ؟ ! . .

فقهقهت قهقهة غريبة مدوية وقالت : سوف ترى . لا بد أن
أراها قبلت أم لم تقبل ! . .

واندفعت كعنتوة نحو القصر ، فطاش صواى ، وانطلقت فى
إثرها ، وحاولت أن أثنيها عن عزمها . ولكنها تملصت منى فى عنف ،
وحشت خطاها ، واقتحمت باب الحديقة غير مكترثة للبواب ولا للخدم .
فتبعها وأنا أجذبها من يديها ومن ثوبها ، وهى تزجرنى وتلطمنى وتندفع
صارخة كأنما قد احتواها إعصار .

وما إن دخلت القصر ، وتوسطت البهو الكبير ، وأبصرت الكونتس ، غريمته وعدوتها ، جميلة جمالا رائعا ، في ثوبها الليلي الناصع البياض الذى كانت تتلأأ عليه أضواء وجهها ، وعنقها ، وذراعيها البضيتين العاريتين ، حتى جن جنوبها ، وانفجرت ثورتها ، فتراجعت ، وتحفرت وطفقت تتحسس جيب مطنفها وهى تهدير . فأوجست انا منها ، وخفت أن تكون قد اعتزمت قتل غريمته . فانقضضت عليها . وحاولت أن أتشبث بها ، ولكنها غافلتنى وانسابت من بين يدي . وقبل أن أتنبه أو أثب أو أصبح ، أخرجت من جيب معطفها زجاجة ، وصرخت فى وجهى وهى تفتحها وتقهقر إلى أقصى البهو الكبير : لقد سحرك جمال هذه المرأة فخدعتنى . ولكنك لن ترى جمالها بعد اليوم أبدا ! . . هذا هو عقابك وانتقامى ! .

وفى مثل لمح الطرف ، كرت راجعة كوحش مفترس ، واستجمعت قواها وقذفت وجه الكونتس بالماء الكاوى ، وطفقت تضحك وتقهقه قهقهتها الغريبة المدوية ! .

وصرخت الكونتس كمخبولة ، وتحسست وجهها وهى تنتفض . ثم أدركت فجأة ما حل بها ، فأرسلت صوتاً ممزقاً ، ثم فقدت رشدها ، وتهاوت كالطود المتصدع ، وسقطت على الأرض مغشى عليها . وشعرت أنا كأن صاعقة قد انقضت على ودمرتنى . فلم أتمالك نفسى ، واندفعت نحو روزا ومضيت أضربها بقبضتى ، وأركلها بقدمى ، وأحاول أن أتمكن منها عسائ أن أستطيع خنقها والقضاء عليها . ولكنها كانت تضحك ، وكانت تهقهقه ، وكانت تنساب من بين يدي انسياً وتوى بأصبعها إلى غريمته وتصيح : يمكنك أن تحبها الآن ! . . إنها جميلة حقاً ! . . أليس كذلك ؟ . انظر . . انظر إليها . . إنها جميلة ! . .

وأحاط خدام القصر بروزا، وفصلوني عنها، وأمسكوا بها. فلم تقاوم، واستسلمت لهم كأنها في نشوة أو في حلم. وقالت: خذوني.. خذوني إلى حيث شئتم. ماذا يهمني الآن عذاب السجن أو الفقر أو الموت.. لقد حرمتها منها كما حرمني من الحب والسعادة والحياة!

وانهارت أعصابها بغتة وانفجرت من عينيها الدموع. ومنذ تلك اللحظة تبدل كل شيء في حياتي ولم أستطع أن أنسى.. لم أستطع أن أنسى الفتاة المنكودة الحظ التي حكم عليها بالسجن سبع سنوات بسببي. ولم أستطع أن أنسى طيف الكونتس جروتشا التي كانت عروس شعري ومهبط وحي ونعمة قلبي، والتي مات جمالها، وتشوه وجهها وانتهت أيضاً حياتها الاجتماعية والنفسية بسببي.

وشعرت أني قد ارتكبت جريمة مزدوجة هائلة. قتلت المرأة التي أحببتني وقتلت المرأة التي أحببتها. فاختلل عقلي وكدت أجن. وأصبحت بين اضطراب عقلي وبقطة ضميري، أتلهف على قوة تنقذني وتعاونني على التوبة والندم والتكفير.

ولم أجد غير الشعر.. فاندفعت في تياره، وارتيمت في غمرته، وطفقت أنظم قصائد أحاول أن أبعث بها حب روزا الذي قتلته، وجمال جروتشا الذي شوهته، وثرأى الأول الذي لم أشعر قط في حياتي بغرام قوي صادق مطلق سواه.

وهكذا أردت أن أكفر بفتي عن جريمتي، وأن أبدع شعراً خالداً يمكن أن يسعد الناس ويشفع في الوقت نفسه عند الله لي..

على أني أدركت في النهاية أن الشعر وحده لن يقر السكينة في قلبي، فأليت على نفسي أن أخدم روزا، وأن أزورها في سجنها، وأن أدخلها مالا ينفعها في مستقبلها، وأن أفعل الخير مع الجميع، حتى مع أعدائي، ما وسعني قوتي، وما استطعت إلى ذلك سبيلاً..

فى مهيب النار

« من حياة الموسيقى المجرى جيران رالف »

« وقعت هذه الحادثة الغريبة للموسيقى المجرى « جيران سباستيان رالف » وهو من كبار الموسيقيين المجرين الشعبيين فى القرن التاسع عشر . وقد كان لهذه الحادثة أكبر الأثر فى توجيه حياته ، واستفاضة شهرته » .

* * *

كان جيران يتفرس فى وجه زوجته وهو يرتجف . . . أهذه هى المرأة التى أحبها ؟ أهذه هى المرأة التى اصطفاها من دون النساء طراً وحياً لعقله ، وحافزاً لنبوغه ، ومثاراً لعبقريته ؟ كيف فعل هذا وكيف تزوج بها ؟ . . كيف لم يفظن إلى لزوم طباعها ، وغلظة أخلاقها ، وقسوة عواطفها ، وتلك الأنانية الجناثية الشائعة فى نفسها والتى تجردها من كل عطف ، وكل رقة ، وكل أنوثة ، وكل حنان ؟! لقد اقترنت به لا لتلهيه بل لتخدمه ، ولا لترفعه بل لتخفضه ، ولا لتحبيه بل لتقتله ! .. اقترنت به لتتمكن منه ، وتسيطر عليه ، وتستأثر بكل جارحة فيه ، وتباعد بينه وبين فنه إلى الأبد !

كان قبل أن يعرفها موسيقياً موهوباً ، صادق العزم قوى الإرادة ، يتطلع إلى مستقبل زاهر مجيد . . . والآن ، الآن بعد أن أحبته حباً عنيفاً مبرحاً ، وبعد أن هجرت زوجها الثرى من أجله ، وبعد أن ضمحت فى سبيله المال والسلطان والجاه العريض ، أصبح يكرهها ويكره نفسه ، ويلعنها ويلعن نفسه ، ويشعر كلما رآها أو لمحها ، أنها كارثة حياته ؛ وعثرة حظه ، وأنه ما دام بالقرب منها ، فمن المحال عليه أن ينتج ، ومن المحال عليه أن يخلق ، ومن المحال عليه أن يفكر ويتنفس ويعيش ! . .

ثلاث سنوات وهو كالجثة الهامدة لا إحساس له ولا شعور ! . . ثلاث سنوات لم يضع فيها أغنية واحدة ، لحناً واحداً ، رجع صوت أو طيف نغم أو حلم جمال . .

تبلد عقله ، وجف ذهنه ، وغاضت عبقريته ، والهمته أنانية المرأة وقضت في نفسه على كل شيء !

تلك كانت حياته منذ تزوج أرمانس . وها هو ذا الآن يتفرس فيها ، ويذكر ماضيه معها . ويتسمم ابتسامة خفيفة مغمضاً عينيه السوداوين الجميلتين في شبه نشوة . .

لماذا يتسمم جيرار ، وما سر هذه النشوة الطارئة التي أفعمت عقله ، رغمرت قلبه ، وأيقظته من سباته العميق ؟

إنه يتسمم أيضاً . . يتحرك . . ينهض . . يروح في الحجرة ويغدو ، كأن سيلاً من الحياة قد انصب في عروقه فجأة ، وأشعل في كيانه النار ! وحادثته امرأته بنظرة ثاقية ، فاضطرب بالرغم منه ، وهم بمغادرة الحجرة . وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخلت منه جراسيا بنت زوجته . . واكفهر الجوبغته ، وساد الصمت . ولم تستطع أرمانس أن تتكلم ، ولم يستطع جيرار أن ينظر مواجهة إلى الفتاة .

وكانت جراسيا ترفل في ثوب حريري أحمر ، ناصعة البهجة ، بريئة النظرة ، طاهرة اللمحات . فرمها الأم بنفس العين الثاقبة ، ثم كبحت عواطفها ، وأخفت حقدتها وتظاهرت بالتعب الشديد ، واستأذنت بعد فترة في الذهاب إلى فراشها . .

وكانت الفتاة وقد عادت من حفلة ساهرة في الأوبرا ، تود أن تحيي جيرار قبل أن تأوى إلى مخدعها ، فلما رأت أن أمها ما تزال مستيقظة ، اضطربت هي الأخرى ، وانعقد لسانها ، ولم تستطع أن تنظر مواجهة إلى جيرار . .

وانسلت الأم من الحجرة كأن لم يحدث شيء ، ثم التفتت إلى ابنتها وزوجها ،
وغمغمت : « طاب ليلكما ... ! » وابتمت في أدب وأوصدت خلفها الباب .
ولم تكد تختفي حتى دنت الفتاة من زوج أمها وأسرت في أذنه هاتفة :
— احذر ! .. احذر منها !

فقال جيران وهو يوشك أن يصبح :
— وماذا يهمنى من أمرها بعد اليوم ؟ ! لقد انتصرت يا جراسيا ،
أتسمعين ؟ لقد بعثت بالأمس فقط ! لقد عشت وتفوقت في ليلة
كما لم أعش وأفوقت في سنين !
فهيمست الفتاة وهى منحنية عليه :

— إذن ؟

فأجاب وهو يختلج فرحاً :

— آخر لحن فى أغنيتى الجديدة وضعته ليلة أمس ! .. أول أغنية
تمكنت من إبداعها بعد ثلاث سنوات من زواجى !
وأردف وهو يتطلع إلى عيني الفتاة :
— ولولاك يا جراسيا ما استطعت أن أخلق نغماً واحداً أو أحس أن فى عقلى
وقلبى بقية باقية من نبوغ ! .. أنا أحبك يا جراسيا .. أنا أحبك يا ابنتى ..
فغمغمت الفتاة ملتاعة :

— صه .. ألا تسمع حركة ؟ ..

فصاح جيران :

— وهل أنا مجرم لأخاف ؟ .. كانت حياتى صحراء قاحلة ... كنت
أعيش يومى فى شبه موت .. كنت أموت وأنا أعرف أنى أموت . فلما
سافر والدك إلى لندن وجئت أنت لقضاء شهرين عندنا ، تطورت نفسى
وتبدلت شخصيتى ، وتغير فى حياتى كل شيء .. ما كدت أراك لأول مرة
بعد ثلاث سنوات وقد اكتمل حسنك ، وازدهر شبابك ، وزانتك طهارة

القلب ، وأشرق عليك خضر العذارى ، حتى أحسست يا جراسيا أن شيئاً
 في صدري يتمزق ، وشيئاً في عقلي يتفطر ، وشيئاً في دمي يضطرم اضطراماً
 لا عهد لي به . . أبصرت الفارق العظيم بينك وبين أملك ! . . لمست
 التناقض الصارخ بينك وبين والدتك ! . . رأيت فيك رمز الفضيلة والخير
 كما كنت أرى فيها عنوان الرذيلة والشر ! وكنت في حاجة إلى قبس من
 الخير لأعيش ، إلى ضوء من الفضيلة لأفكر ، إلى لمعة من لمعات البراءة
 لأبدع وأخلق وأرتد فناً عظيماً كما كنت ، فأحببتك يا جراسيا
 أحببتك بالقلب لا بالجد ، بالروح لا بالمادة ، أحببتك كما لو كنت
 ابنتي . كما لو كنت قد انحدرت من صليبي . ومن هذا الحب البريء
 العميق ارتويت . ومن هذا الحب النقي العظيم استوحيت الجمال والفن
 وسكبت عصارتهما في أغنيتي ! . . فأنت التي أحببتني يا جراسيا . وإذا
 كانت أملك قد قتلتني فأنت التي نفخت في رفاقي من روحك وبعثتني !
 وجثا الفنان عند قدمي الفتاة ، وحاول أن يقبل طرف ثوبها ولكن
 جراسيا أقصته في عنف ، وأشارت بيدها نحو الباب وقالت وهي ترتعد :
 — أسمع حركة غريبة . . لا تدن مني . . أمي لا تفهمك وهي تشك
 فيك بل تشك فينا نحن الاثنين . . يجب أن أرحل غداً . . يجب أن أرحل
 بوالدي . . لم تعد بك من حاجة إلى وجودي ما دمت قد عدت إلى طبيعتك
 وفرغت من وضع أغنيتك . . لا بد أن أرحل غداً . . .
 فهتف جيران من أعماق قلبه :

— جراسيا !

فصاحت وقد امتقع وجهها :

— نفس الحركة . . . نفس الصوت . . . ألا تسمع ؟ . . إنها
 تتجسس علينا . . افتح . . افتح الباب . . أريد أن أنطلق إلى مخدعي .
 فتحامل جيران على نفسه ، وفتح الباب في رفق ، وأفسح لجراسيا

الطريق . ولكن الفتاة لم تكذب تبلغ اليهو المظلم الصامت ، وتلقى نظرة على
غرف البيت ، حتى ارتدت شبه مخبولة ، وأمسكت بذراع جيرار وغمغمت :
— إنها هنا . . . رأيها . . . إنها في حجرة مكتبك . . .

فذهل جيرار ولم يفهم . . . وفي وثبة عصبية عنيفة أثارها فيه هواجسه ،
اندفع نحو حجرة مكتبه قبل أن تصل جراسيا إلى مخدعها ، ثم مد أصابعه
وأشعل النور . فأبصر أمامه زوجته أرمانس ، واقفة بجوار مكتبه ، جاحظة
العينين ، مضمومة الفكين ، ممسكة بيدها الكراسة الصغير ، الكراسة
التي كتب فيها أغنيته ، تلوح بها ، وهم يالقاءها في الموقد لتلتهمها النار ! ..
وما إن رأيته أرمانس حتى صرخت :

— تخونني مع ابنتي ؟ . . . خذها إذن . ولكني قد أخذت منك
أثمن شيء ! . . . وها هو ذا عقلك وفنك في لهب النار !

فجن جنون جيرار وانقض عليها كالوحش وهو يصيح :

— جراسيا ابنتي ! . . جراسيا ابنتي ! . . والويل لك ان اتهمتها
بسوء أو حاولت إتلاف هذه الكراسة التي هي كل حياتي ! . .

وارتمى عليها وتشبث بها ولكنها قاومته ولمصت منه . ثم رفعت ذراعها
وهمت بأن تلقى بالكراسة في جوف الموقد . فطاش صواب جراسيا ، وأسرعت
لنجدة زوج أمها . فثارت ثائرة أرمانس وهالها أن تفلت منها الفرصة
فاستجمعت قواها وأفلتت من ابنتها وجيرار ، وفتحت درج المكتب
وأخرجت مسدس زوجها وشهرته في وجه الرجل والفتاة وصاحت :

— ستصبح الكراسة طعمة للنار ! . . ومن شاء أن ينقذها فليتقدم ! .

ولوحت بذراعها هادرة ، واستدارت صوب الموقد . . . وعندئذ وفي مثل
لمح البصر غافلتها جراسيا ، وارتمت عليها ، وشدتها إلى صدرها . فتاه فكر
أرمانس ، واختبل عقلها ، وبالرغم منها أطلقت النار . فأرسلت جراسيا
صرخة مدوية ، وتهافت على الأرض شبه جثة هامدة تنزف منها الدماء .

ولم يكد جيرار يبصر الدم يترقق على ثوب جراسيا حتى صرخ
في امرأته كمعتوه .

— ابنتى ! قتلتي أبنتى ! . . .

فتفتحت جراسيا عينيها الكليلتين ، ورمقت أمها بنظرة ، وغمغمت
— لا ! . . . لم تستطعي قتلى ! . . أصبتي في ذراعى فقط . .
وسأعيش . . . سأعيش يا أماه ! . . ولكنك إذا كنت تشكين حقاً في
مسلكى ، وإذا كنت تعتقدين حقاً أنى ارتكبت ذلك الإثم الفظيع ،
فأطلقى النار على ثانية واقتلينى . وهذا هو يا أماه الحبيبة صدرى ! . . .
وكشفت عن صدرها ، وأردفت وهى تنظر إلى جيرار :

— لقد أحبنى جيرار كابنته ، وأحبيته كأبى . وكل ذنبى يا أماه
أنى بهذا الحب الخالص النقي قد رددته إليك . . ووهيته لك . . وأنقذت
عقله وفنه ونبوغه من أجلك يا أماه ! فاقطينى إذا شئت أوعدينى بأن تنبذى
أفانيتك ، وتقلعى عن استبدادك وغيرتك ، ولا تحاولى أن تستأثرى أبداً
بزوجك لأن زوجك ليس ملكك وحدك يا أماه بل هو أيضاً ملك العالم ! .
أما أنا فلن أبقي هنا ! . . سأرحل ! . . سألحق بوالدى صباح الغد . . .
وصممت جراسيا وهى تتأوه ، فشخصت إليها أرمانس طويلاً وقد
روعتها إصابتها ، وأدهشها صدقها ، وأذهلتها تلك الهمة النكراء التى
وصمتها بها . فاستفاق ضميرها وجاشت عواطفها ، ودفعت بالكراسة
إلى جيرار ، وطفرت من عينيها الدموع !

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، لما ودعت أرمانس ابنتها ، ضممتها إلى صدرها
فى حنان غريب . ثم أسرت إليها وهى تقبل موضع الجرح من ذراعها :
— اطمئنى . . لقد فهمت ! . . سيكون جيرار ملك العالم قبل أن
يكون لى وحدى !



موقف ريفي . للرسام فرنسوا بوشيه - متحف اللوفر



عروس الإلهام . للرسم فرانسوا بوشيه - متحف اللوفر

سلطان الماضي

« من حياة المصور الفرنسي ديلاكروا »

« الرسام العبقري أوجين ديلاكروا من أشهر الرسامين الفرنسيين في القرن التاسع عشر ومن أقطاب المدرسة الرومانتيكية . وكان من أشد المعجبين بالشاعر الإنجليزي بيرون وقد جاهد مثله في سبيل استقلال اليونان .

وفي هذه القصة تحليل لنفسية ديلاكروا من خلال حادث غرام كان له أعمق الأثر في حياته » . .

كان « ديلاكروا » وهو في العشرين من عمره أولع ما يكون بالنظر إلى الحياة من خلال العاطفة ، وكانت العاطفة هي التي تسيطر عليه ، وهي التي تقوده ، وهي التي يستمد منها قوة الإرادة والتفكير والعمل . ولكن هذه العاطفة المشبوبة كانت في الواقع محض تلهف وتحرق وسعى مطرد وراء المرأة .

فخيال المرأة المنشودة كان يعذب الفنان الناشئ ، واستحالة العثور عليها كانت تؤسسه وتضنيه فكان يلوذ بنتنة العاطفة ، ويفزع إلى جمال الشعر ، يخلعه على الطبيعة والناس ، ويجد فيه متنفساً لصدوره ، ومنصرفاً لهمه ، وعزاء لآسائه وخسرته .

وكان مفتوناً بحب البائسين ، مندجماً فيهم ، كلفا بخدومتهم ، يرى في حياتهم الشقية السوداء رمز البساطة والبراءة ، والجلد والاحتمال ، والألم والتضحية .

وكان عطفه العميق على البؤساء يتمثل في الصورة التي أبدعها خياله من المرأة .

كان ينشد امرأة سامية القلب والروح ، جميلة ونقية ، ذكية وظاهرة ، مثقفة وطيبة ، تحب الشعب كما يحبه هو ، وتبذل في سبيل كل تاعس محروم خلاصة فكرها وعصارة قلبها .
وظل ديلاكروا يبحث الأعوام الطوال عن هذه المرأة على غير جدوى .

بحث عنها في المجتمع الأرستقراطي فألفاها مترفة وأنازية ومستهترة .
وبحث عنها في الطبقة الوسطى فألفاها تحاول أن تقلد سيدات المجتمع الأرستقراطي .

وبحث عنها في أوساط الشعب الذى يحبه فألفاها جاهلة يخيم عليها ظلام الأجيال والقرون .

وهكذا انطوى ديلاكروا على نفسه وأودع حلمه أعماق قلبه ، وقنع من خياله بالوهم الجميل ، يستهبط منه وحى فنه ، ويعلل النفس بإمكان العثور عليه في يوم من الأيام .

وكان العبقري في غضون ذلك يطالع ويدرس ، ويتشقق ويتأمل ، ويجمع المعلومات ، ويختزن الملاحظات ، ويعد عدته للإنتاج والخلق .
وكان أشقى الناس بعقله ، وأشقى الناس بإحساسه ، يود أن يشرب ذهنه كل روائع العلم وكل صور الحياة ، ويود أن يشرب قلبه في الوقت نفسه كل انفعالات النفس وكل تباريح الغرام .

وبينما كان يجد في مختلف آثار الفكر البشرى غذاء لعقله كان قلبه لايزال خاوياً . تهشه الحسرة ، وتمزقه الوحدة . ويكاد يعصف به الفشل واليأس .

وفجأة لاحت له مارى لويز بوليه ! . . .

رأها ذات صباح في ضاحية قروية من ضواحي باريس فافتتن بها .
كانت معلمة صبية ، وكانت فتاة على جانب عظيم من الجمال ،

مديدة القامة ، ناصعة الحبهة ، ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، تخلص الإخلاص كله في حب أبناء الفلاحين وتعليمهم ، ورعايتهم ، والسمير على علاجهم ، يعاونها في ذلك طبيب القرية وبعض الفتيات الأرستقراطيات ، اللواتي نبذن حياة الترف والفراغ ، وأقبلن مختارات على خدمة الشعب . وأحب ديلاكروا في ماري لويز ملاحظتها الناضرة ، وبهجتها الخالصة ورحمتها الواسعة ، وإقبالها على خدمة الفقراء في غير ما تبرم أو تضجر أو أنفة أو اشمئزاز .

رأى فيها صورة المرأة الكاملة التي طالما أقص خيالها مضجعه ، فطفق يزور القرية مرة كل أسبوع ، ويتقرب إلى ماري لويز ، ويتودد إليها ، ويعاونها في عملها ، ويبذل قصاره في خدمة أبأس وأقدر الفلاحين أسوة بها .

ونشأ بينهما حب ناضر عفيف . حب نبع من الصداقة وتفجر من العقل ، ولم تشبه أية شائبة من دنس . وكان ديلاكروا سعيداً بهذا الحب أما ماري لويز فكانت شقية به كل الشقاء . . .

كانت تشعر شعوراً غامضاً مبهماً أنها تحب العبقري بالقلب لا بالجسد ، وأن روحها تهفر إليه وفكرها يستمد الحياة منه ، ولكن شبابها الممتلئ صحة وقوة لا يستجيب لندائه ، ولا يحس أمامه بأى ميل جثماني يمكن أن يمهد السبيل لرباط زوجي مشروع . . .

ولم يقطن الشاب إلى جوهر شخصية الفتاة ، فاندفع في الحب ، وأسرف في الأمل ، وعرض عليها الزواج . . . بيد أن ماري لويز قابلت عرضه بالفتور وطلب التريث وإنعام النظر ، فالتهمت كبرياء الشاب وقام في ذهنه أن الفتاة تحتقره ، وأنها قد خدعته وسخرت من عواطفه ، فعز عليه حبه ، وعزت عليه كرامته ، فأبى أن يتوسل ويلتمس

وكف عن الذهاب إلى القرية ، وآلى على نفسه أن يقطع كل صلة له
بالفتاة إلى الأبد ! . . .

* * *

هذه الصدمة البسيطة في ظاهرها أحدثت أعمق الأثر في نفسية
ديلاكروا . كره النساء جميعاً . اعتقد اعتقاداً راسخاً أن كل فتاة خائنة ،
وكل امرأة غادرة ، وكل أنثى مكيدة حية صاغها في خبث مروع عقل
شيطان . .

ومع ذلك فصورة ماري لويزل تمزج خياله . كان يحلم بجهتها الناصعة ،
وشعرها الذهبي ، وعينيها الزرقاوين ، وكان يتألم . . .

كان يتألم كرهاً لها ، وسخطاً عليها ، وشعوراً منه بحاجة عميقة شديدة
إلى امرأة مثلاً . . امرأة تشبهها . . امرأة تحمل نفس الشعر الذهبي المتوهج ،
ونفس الحبهة الشاحخة الناصعة ، ونفس العينين الزرقاوين الساحرتين .
وتعاقبت الأعوام ، وتأتى نجم ديلاكروا ، واعترفت به فرنسا وأوروبا
بأسرها رساماً عبقرياً ، ولكن هذا المجد العظيم لم يستطع أن يمحو من
ذاكرته تلك الصورة البغيضة العزيزة التي كانت أول أحلام شبابه ، وأول
أمل له في هذه الدنيا .

وظلت الصورة متمكنة منه ، مستبدة بخياله ، مخالطة أفكاره
وواطفه ، تحرمه لذة الراحة والسكينة والعمل الهادئ القريب ، حتى عرف
ذات ليلة في أحد صالونات باريس سيدة محسنة كريمة مولعة هي
الأخرى بخدمة البؤساء ، تدعى جوزفين دى لافاليت ، ما إن رآها حتى
خيل إليه أن ماري لويزل قد بعثت فجأة وتمثلت فيها ! .

والواقع أن جوزفين كانت المثال الأكمل لما كان يجب أن تكون عليه
ماري لويزل . .

كانت تشبهها في لون الشعر ولون البشرة ولون العينين . ولكنها كانت

أجمل منها بدنًا ، وأنضج عقلا ، وأوفر ثقافة ، وأعمق إغراء وسحرًا . كانت امرأة وطيدة البدن ، ممشوقة القد ، ذات عيين حادتين جريشتين ، وخدين موردين مليئين ، وغدائر ذهبية ضافية ، وجمال فاتن غريب تقترن فيه البهجة بالعزة ، والأنوثة بالقوة ، والسداجة بالدل ، والطهارة بالكبرياء .

هذه المرأة العجيبة في كل كمال أنوثتها وكمال أخلاقها ، أفقدت الفنان عقله ، فأحبها حباً جارفاً طاغياً عاتياً .

أحبها لذاتها وأحبها ليقظة ماضيه البعيد فيها . ولكن ذاتها المستقلة لم تكن لتأسره بقدر ما كان يأسره ذلك الماضى البغيض العزيز الممثل فيها . وساقته ذكرى ماري لويز إلى الاتصال بجوزفين ، فأحبهته المرأة وهي لا تدري أنه إنما يحب فيها روح شبابه وصورة ماضيه ، ورغبته الخفية في الثأر لنفسه من ذلك الماضى الذى خدعه ، وغرر به ، وسامه في مطلع حياته شر ضروب العذاب .

وكما عذبه ماري لويز أراد أن يعذب جوزفين انتقاماً لماضيه مع ماري لويز . . . ولأنه لم يستطع أن يذل ماري لويز فقد أراد إذلال المرأة التي تشبهها وإذلال جميع النساء ممثلات في هذه المرأة .

على أنه مع ذلك أحب جوزفين . أحبها بقلبه وأبغضها بخياله . أحبها بحاضره وأبغضها بماضيه . أحبها بطيبة الفنان ولكنه أبغضها ، وعذبها ، ونكل بها ، بقسوة الإنسان المتكبر الأنانى الحقود الموتر الذى يزين له حقه ان يثار من خيال تقلص ومات ، في مخلوق برىء مسكين يختلج حباً وأملاً وتطلعاً إلى الحياة !

هذه المأساة المروعة ، هذه المأساة النفسية الدامية التي حطمت قلب وجسم الفنان العظيم ، لا يستطيع أى كاتب أن يصورها كما صورها الفنان نفسه في رسائل بعث بها إلى حبيبته ، وأماط بين سطورها اللثام

عن مبلغ النسر الذى يمكن أن تحدثه فى النفس البشرية عاطفة الحب المنبؤ ، متى أصيب بها إنسان ، طائش متكبر ، فى مطلع عمره وفى فجر صباه .

وهذه هى الرسالة الأولى التى كتبها ديلا كروا لجوزفين بعد أن اتصل بها وتوثقت بينهما أوامر الصداقة والحب :

« أعترف أنى رجل شاذ الميول ، منحرف الأهواء ، عذبتك يا حبيبتي بمزاجى المتقلب ، وطبعى المتلون ، وغيرتى الطائشة الحمقاء ، وميلى الشاذ إلى إحداث الألم للغير .

والواقع أنى إنسان شرير ، لا تطيب لى الحياة إلا إذا عذبت من أحب . ولقد عذبتك متعمداً ، مدفوعاً بقوة لا تقاوم . هذا ما لا يمكنك أن تفهميه ومن المحال أن أكشف لك عن سره أبداً . .

إنى مخلوق تجمعت فى أطواء نفسه عاصفة ، أثارها القدر منذ سنين ، ثم أخذها فترة من الزمن ، ثم عاد فأطلقها من عقالها ، وصحبها عليك أنت ريحاً وحمماً وسيلاً دافقاً من نار ! . . . هذه النار التى احترقت أنا بها ، لا أستطيع التخلص منها إلا إذا أضرمتها فى جسد وقلب أحب الناس إلى جسدى وأعزهم على روحى وقلبي ! . . ولهذا عذبتك وأعذبتك . عذبتك لأشعر بكرامتى ، وأشعر بقوتى ، وأشعر برجولتى ، وأشعر أنك خاضعة لى ، وأنى طاغية مستبد تعنو لمشيئتي امرأة مسكينة لا قوة لها ولا حول . . . هذه اللذة المسمومة ، هذه اللذة الغاشمة ، لذة البطش بالضعيف ، كانت وما تزال تنغص حياتى ، وتعكر على صفو حبي ، وتدفعنى فى بعض الأحيان إلى التفكير فى قتل نفسى ، إنقاذاً لك منى ، وإنقاذاً للبقية الباقية من شرفى وكرامتى وضميرى ! . . .

والحقيقة أنى ما أحببتك وما اتصلت بك ، إلا لأتطهر على يدك من رجسى ، وأشقى بين ذراعيك من لوثتى ، وأحس من خلال أنوثتك

الناصرة معنى الرقة ومعنى الرحمة ومعنى الشهامة والنبيل والطيبة والصفاء .
ولقد قابلت إسماعى بالإحسان ، فغمرتني بالحنان والعطف ، وطوقت
عنقى بجميل لن أنساه أبد الدهر . نعم . إن حبك أشرق على حياتى كشمس
الربيع . . . وسمو أخلاقك جاهد ما استطاع ليرفعنى فى عين نفسى ،
ويطهرنى فى أنظار الناس ، ويضئ على فى حلة من النبل الأصيل .
ولكنى أخشى مع ذلك ثورة غرائزى . أخشى اندلاع نار الشر
الكامنة فى دمى . أخشى أن أعذبك أيضاً يا حبيبى وأن أعذب نفسى .
كيف . . . كيف أفر من نفسى ومن خيالاتى ، وأطيانى ، وعوامل
القسوة والأنانية والبطش المتمكنة منى ؟

إنى كلما تأملت شعرك الذهبى فقدت رشدى ، وكلما نظرت إلى
جبينك الشامخ اختبل عقلى ، وكلما حذقت إلى عينيك الزرقاوين غلى
الدم فى عروقى ، وازددت حباً لك وقمة عليك ! . .

لماذا لا يستطيع القدر أن يبدل معارف وجهك ويبقيك مع ذلك
شائقة وفاتنة وخلافة ؟ . . على أنه لو فعل لقتل سحرك وقتل أيضاً كل
ما أشعر به من لذة حبك وتعذيبك ! يا لها من لذة يثور عليها قلبى
ويعشقها عقلى بكل فكرة تختلج فى تضاعيفه وكل نية طيبة أو شريرة
تمرح فيه ! أنا وحش فى صورة إنسان . وإنى لأكاد أجن كلما فكرت
أنك بكل طهرك ، وكل صفائك ، قد عجزت عن تبديل خلقى . هذه
الفكرة توشك أن تأتى على . . لأنى إذا كنت لم أوفق وأنا بنجوار امرأة مثلك
إلى امتلاك الراحة النفسية التى أنشدها ، فأى مخلوق فى هذه الدنيا يستطيع
بعد ذلك أن ينقذنى ؟

على أنى لا أريد أن أفصل عنك . لا أريد أن أعيش بدونك لا طاقة
لى على الحياة بغير وحيك . فيجب أن أحاول أيضاً ، أن أجرب أيضاً . أن
أبدل منذ غد كل شئ .

أجل . لن أمسك بسوء . لن أخدش سمعك بعارة نائية . لن أنطاول عليك لا بالغيرة المجنونة ، ولا بالسباب الوضع ، ولا بالضرب الشائن المزرى . . هو ذلك لقد كنت أضربك . بل لقد ضربتك بالأمس وأنا لا أعي ! . . شلت يميني التي رفعت عليك وقطعت يدي التي امتدت إليك بسوء ! . . ما ذنبك أنت لأنتقم منك ؟ . . أنت بريئة ! أنت مظلومة ! أنت شهيدة وضحية وفدية ! ! . . لا . . لن أمسك بسوء أبداً . . سأجلس إليك هادئاً صامتاً خاشعاً ، أحرق إليك طويلاً عسى أن أفهم سر صبرك واستشهادك ، وأستطيع بعد هذا الشقاء الطويل أن أستمد من عينيك ما أنا في حاجة إليه من قوى الطمأنينة والراحة والصفاء والاستقرار . فإلى غد يا حبيبتي واغفري لي جنوني ! »

* * *

وكتب إليها في اليوم التالي يقول :

« أنا عاجز عن الذهاب إليك . . أحس أني لورأيتك ثانية فلا بد أن يستفيق شيطاني ويصرعني ! . . فرى أنت من أمامي . لا تحاولي أن تتصلي لي . اكفيني مؤونة تعذيبك وتبكيك ضميري . وإذا كنت حقاً تحبينني فأحبي نفسك قبلي واشترى راحتك وأمنك بالقضاء المبرم على . . هذه كلمتي . فانعمي النظر فيها وأسدي على حبنا الستار ! »

* * *

وانقضى أسبوع وعاد الفنان يكتب إلى حبيبته على الرغم منه :
« لا بد لي منك وإلا اختل عقلي وذابت قوته تحت لظى فراقك ! . . إني لا أستطيع أن أفكر أو أعمل أو أتفلس أو أعيش !
صورتك في خيالي ، طيفك نصب عيني . ابتسامتك تشرق في صحراء يأسى . صوتك يجلجل في قلبي كأجراس كنيسة طاهرة في يوم عيد !

لو تخليت عنك تخلى الله عني . ولو نبذتك نبذني الحق ، واجتواني
الخير ، وتلقفتني في سعي حياتي أيدى الشياطين .
سأعود إليك صاغراً ولو هلك . انتظري مساء اليوم اسكبي على
بدنك ثوبك الأبيض الذي اعبدته وانتظري . وليكن هذا الثوب الذي
عرفتك فيه رمزاً لحب جديد وأمل جديد وبعث جديد ! . . . »

وهذا ما كتبه إليها بعد أن عاد فارتحل بها :
« أواه ! . . يا للشقاء المقدر علينا ! . . يا للعة التي حلت على غرامنا ! .
يا للنعمة الإلهية التي تطاردني وتأتي على إلا أن أقتل حيي بيدي !
بالأمس أيضاً أهنتك لشبهة عابرة ، لظل من شبهة باطلة . أهنتك
وحقرتك . ضربتك وأحسست لأملك وعذابك سعادة ولذة ما شعرت بهما
عمري ! . . ولقد جمحت في هذه اللذة المرضية فأوشكت أن أقتلك .
ثم جمحت بك أنت أيضاً لذة الفناء في الحب والإخلاص والتضحية
فشجعنتي وألهبني وصحت في : اقتلني ، اقتلني لأستريح وأنتهي . .
لا . لم أستطع أن أقتلك بالأمس ولكني قد أقتلك غداً ! لهذا عزمت
عزماً قاطعاً على ألا أعود إليك أبداً . وكيف يمكن أن أعود وجاذبية
الجريمة تطاردني . ونية القتل تحتل ذهني ، وإيمعاني في اضطهادك
وتعذيبك يشعرنى بأنك أنت نفسك لا بد أن تفكرى يوماً في قتلي ؟ ! . .
أجل . سيعيش الواحد منا متر بصاً بالآخر ، يصبر عليه وهو يكرهه ،
يحتمله وهو يبغضه ، يمالكه على حبه وهو يتحين الفرص للقضاء عليه ! . .
لا . لا أريد أن نصبح عدوين . . لا أريد أن توجسني مني ، وتخافي
من رغبتني ، وتستريبي بكل نظرة أو حركة أو ابتسامة تصدر عني .
كما أنني لا أريد أن أحذر قبلك ، وأحذر عنائك ، وأحذرني غمرة الحب
سورة الانتقام التي لا بد أن تضرمها نار الكراهية على مر الزمن في دمك !

فيجب أن أرحل قبل أن أقدم على قتلك أو أستهدف لانتقامك
فاغفرى لى مرة أخرى كل ما أنزلته بك من عذاب ، واعلمى أن الله لن
يصفح عني ، ولن يرحمنى ، وهو لا بد أن يثأر لك منى جزاء وفاقاً على
ما اقترفه قلبي واركتبه يدي . . . الوداع ! . . .

وقطع ديلاً كروا كل صلة بجوزفين ، وانقضت أعوام طويلة لم يرها
فيها . ولم يبعث إليها فى غضونها بأى خطاب . وفجأة كتب إليها هذه
الرسالة التى روعتها وقضت فى نفسها على كل أمل وكل رجاء :
« لقد أخرسنى المرض يا حبيبتي فلم يعد فى وسعى التحدث إليك ! . .
إن القدر العاظم أجهز على بدنى ولكنى أنا الذى أجهزت على نفسى يدي ! .
كيف لم أقدرك قدرك أيتها الساحرة المنشودة ، يا أبدع مثال صيغ للبشر
من مادة الحب والوفاء . كيف لم أحبيك كما كان يجب أن تحب امرأة
مثلك ؟ . . كيف لم أفهم أنه كان فى وسعى ، لو كنت قد طهرت قلبي
على يدك ، أن أطهر فنى أيضاً وأسمو به إلى ذروة الكمال المائل فى
نفسك ؟ . . ولكنى كنت إنساناً ، إنساناً متكبراً صلفاً مغروراً ، بسطت
إليه السعادة يدها الناضرة ، فأعرض عنها وتركها تترنج وتسقط ! . .
آه لو رأيتنى الآن . أخشى أن تشمئز نفسك منى وتعاف عينك النظر
إلى . إن المرض أنهك قواى ، وشوه وجهى ، وقوس ظهري ، وخنق صوتى ،
وأحالتنى هيكلاً عظيماً يدب إلى القبر على مهل ! . . لقد انتقم الله لك
يا حبيبتي . فاهنتى بانتقامك فأنا أستحقه ! . . ولكن اعلمى أنى لم أسئ
إليك بمحض اختياري . لم أكن مسئولاً عما صدر منى . هو الماضى
استبد بى ، وتحكم فى خيالى . وسحقنى . هى امرأة اندست فى كيانى
وسممت قلبي ، وصرعتنى . الآن أعترف لك بكل شئ . لقد خدعتك .
لقد غررت بك . لقد أحبيتك من خلال شبح تلك المرأة الغادرة
الحيثة المتلونة . كنت عبداً لطيفها . أسيراً لذكراها . . فلما عرفت

رأيتك صورة حية منها ، فعشمتك فيها ، وعشقت ذكراها بالرغم مني
 ممثلة فيك ، وطمعت أحب وأكره ، وأعشق وأثار ، وأعبد وأكفر ،
 وأنكل وأضرب ، عساي أن أتخلص من عاري القديم ، وأسترد ثقتي بنفسي ،
 وشعوري بكبريائي ، وأهدأ وأستريح !

ولكنني عبثاً طلبت الراحة ، وعبثاً تمنيت الخلاص . . كنت كلما
 عذبتك أحببتك ، وكلما أحببتك بعثت طيف الأخرى ، وغذيت بالخسرة
 والألم والذكرى ورأيت رأي العين يتقمص فيك ، ويتجسد في شخصك ،
 ثم يحول بيني وبينك ، ويلقي بي في صحراء جنوني ، تائهاً حائراً مدعوراً
 لا أدري إنسان أنا أم خيال ، وهل أنا أعشق إنساناً أو أريق عصارة
 ذهني وبدي سعيّاً وراء خيال ؟ !

هذه المأساة هي التي أفنت عزيمتي ، وهدت قوتي ، وابتلتني بالمرض
 الفظيع الذي شوه اليوم وجهي ، وقوس ظهري ، وأحالي هيكلاً بشعاً
 منفراً يدب إلى القبر على مهل . فاهنئي ! . . اهنتي بانتقامك يا حبيبتي
 وتهللي ! . . اهنتي بانتقامك إذا شئت أو فارحميني ! . . ارحميني إذا
 قدرت أن جريمتي كانت دليل ضعفي وكانت في الوقت نفسه برهان
 حبي ! . . ولقد أحببتك برغم كل شيء ومن المحال أن أنساك ! .
 سأعيش في ضوئك الساطع وفي ظلك المحي . . سأعبد فيك خلاصة
 فضائل جنسك . ولكنني لن أشقيك بوجودي . لن أفرض عليك احتمال
 دعر النظر إلي . فأنا نفسي بت أرتعد من رؤية نفسي . . فكوني سعيدة ،
 كوني سعيدة مع سواي ولا تبخلي علي في المستقبل بنعمة الذكرى ! . .
 أقبل يدك في خشوع وأنا أفكر فيك ، وأضرب صدري بقبضتي نادماً
 مستغفراً وأبكي ! . . .

* * *

وكانت هذه آخر رسائل أوجين دي لاكروا إلى جوزفين دي لا فاليت.

ولكن جوزفين المنكودة الحظ التي احتملت وصبرت ، وقاست في علاقتها بالفنان العبقري شر ضروب الحسف والهوان ، كانت مع ذلك تحبه حباً عنيفاً . فلما انصرف عنها ، وأوصد دونها أبواب بيته ، استشعرت فراغ قلبها ، وظلمة حياتها : فاتجهت بجميع قواها إلى خدمة البؤساء والمحرومين . غير أن هذا الجهد وحده لم ينقذ غلتها ، ولم يغنها عن حبها . فأرادت أن تبعث ذلك الحب من قبره ، أرادت أن تجدد ذكراه ، وتسبح في ضوءه ، وتعيش في ظله ، ولو عشقت بدورها طيفاً وهامت هي أيضاً بخيال . . . فماذا فعلت ؟ . . .

تخيرت صورة بديعة لذيلا كروا تمثله وهو في مقتبل عمره وريعان صباه ، ورصدت للصورة في بيتها حجرة خاصة ، ثم أحاطت الصورة بأوشحة بيضاء ، وجللتها بأزهار مختلفة الألوان ، ونصبت فوقها مصباحاً زيتياً صغيراً ، وجعلت من الحجرة شبه هيكل سرى مقدس لعبادة الحب والخيال والذكرى . . .

وعاشت جوزفين دى لافاليت في تلك الحجرة النائية الصامته الموحشة ، قانعة راضية سعيدة ، تفكر وتتأمل وتصلى ، مشرّبة العينين إلى صورة حبيبها ، تبثه حبها ونجواها ، وتسأل الله له الرحمة والمغفرة والشفاء .

وهكذا أنقذها الماضي وأسعدتها الذكرى . هذه الذكرى التي افترست على النقيض نفس وعقل وجسم ذيلا كروا ، وجعلت منه في حياته الذهنية والعاطفية أتعس إنسان !

إلهام وعذاب

« من حياة الشاعر النمبوسى ليوبولد هالم »

عاش في فينا في أوائل القرن الماضى شاعر نمبوسى نابغ هو « ليوبولد هالم » مات ولم يترك غير ديوان شعر واحد خلد به ، وهذه القصة هى قصة ديوانه الشعرى وقصة غرامه الأول والأخير .

كان نحيل الجسم ضامر التقاطيع ، تحيط بعينه الغائرتين هالة سوداء ، وتلتصع في خديه الشاحبين بقع شديدة الاحمرار ، لا تكاد تظهر حتى تختفى كى تعود فتظهر كلما تأثر أو انفعل أو اهتاج . وكان ليوبولد في نحو الثالثة والعشرين من عمره ، جميلاً برغم المرض الذى أصابه فجأة وعكر عليه صفو شبابه الطامع المتكبر العنيد .

والواقع أن سواد عينيه كان فاتناً ، واحمرار خديه كان رائعاً ، وضمور تقاطيعه الدقيقة كان يبعث في النفس شبه رهبة تأخذ بمجامع القلوب .

ولقد انحدر ليوبولد من أسرة قروية فقيرة ، ولكن نفسه عافت العمل في المزارع والحقول ، فهجر القرية واستقر في فينا ، حيث اشتغل بالتدريس ، وعكف على القراءة والكتابة والتأمل وقرض الشعر . وكان يحس إحساساً غريباً عميقاً أنه رجل ممتاز ، كان يحس أن الطبيعة قد أعدته للنهوض بعمل عظيم ، كان يشعر أنه شاعر موهوب . والحق أن ذهنه كان يمزج بالأفكار والصور ، وخياله كان يجيش بالأطراف والأحلام ، وقلبه كان يدوى بالإحساسات والعواطف ، وكيانه

كله كان يهدر حباً للجمال ، وحباً للمرأة ، وحباً للحياة .
وبقدر ما كان يحب المرأة كان يخاف منها ، وبقدر ما كان يطلبها
كان يبتعد عنها ، حرصاً على نفسه ، وضناً بصحته . وخشية أن يستفحل
المرض تحت وطأة الحب أو الزواج فيقضى عليه .
وكان ليوبولد التاعس مصدوراً ، كانت الحمى الخفيفة الحبيثة
تجده ، ونوبات السعال المتقطع الجاف ترهقه ، وبصمات الدم الأحمر
الساطع تذهله وتفرعه ، وتلقى في روعه أنه صائر حتماً إلى الموت وهو بعد
في ربيع العمر ومقبل الصبا .

وكان يود أن يعيش اليوم ، يقيناً منه أنه سيموت غداً . . ومع ذلك
فالغد كان يستهويه ، وكان يدعوه ، وكان يزين له الصحة والشباب
والأمل ، فكان يرفض أن يعيش ، ويرفض أن يتمتع ، ويؤثر حياة
العفة والعزلة والراحة عساه أن يتفوق على الداء يوماً ويشفى .
وهكذا كان ليوبولد ضحية ثلاثة ألوان من العذاب ، عذاب الحرمان
الذى لا ينفك يغرى بالتمتع ، وعذاب المرض الذى لا يفتأ ينصح بالتعقل
والكبت ، وعذاب النبوغ الذى يود أن يتحقق ، فيحول المرض والحرمان
بينه وبين الحرية والانطلاق . . . تلك كانت حياته ، حرمان وكبت
ونضال ، نضال في سبيل الصحة ، ونضال في سبيل إبداع أجمل شعر ،
وأعجب فن ، وأخلد وأبقى جمال .

ولكن كيف يمكن أن ينبت الشعر في صحراء ؟ . . كيف يمكن أن
يكون الشعر العظيم مجرد خيال تبعثه حسرة المرض ولا تلهيه آلام وأفراح
وتجارب الحياة ؟ . . وكذلك كان شعر ليوبولد في تلك الفترة ، كان شعراً
قوياً ، ولكن قوته كانت في لون واحد هو الحرمان ، ولقد ظل هذا اللون
مستبداً بوحى الشاعر ، متمكناً من ذهنه ، متحكماً في تصوره ، موصداً
دونه آفاق الخيال ، حتى انفتحت أمامه فجأة أبواب الدنيا فعرف المرأة

وعرف الحب ، وعرف الخلاص .

أولع بفتاة تدعى « إيفلين » ، بنت صانع قبعات . رآها لأول مرة في مرقص شعبي ، فأخذته منها حلاوة حديثها ، ورقة شمائلها ، وفتنة البراءة والطهارة الشائمة في جبينها الناصع وعينها الصافيتين . وأحبها كما يحب المختضر نسمة الأخيرة ، والغريق حطامه المنشود ، فتعرف إليها ، وتودد لها ، وفي قلبه شبه ثورة لا يكاد يضرمها الأمل حتى يخمده الردد والخوف . . .

وكان الخوف ما يزال مستحوذاً عليه ، مستغرقاً نفسه ، فاصلاً بينه وبين العالم ، فقاوم هذه النزعة جهده ، وأحكم الصلة بينه وبين الفتاة ، واعتقد اعتقاداً راسخاً أن حب المرأة ، وحب الحب ، هما الطريق الفرد الذي لا بد أن يؤدي إلى امتلاك العبقريّة وإحراز الشفاء . وكان يشعر أنه يغامر في هذا الحب بكل شيء . ولكنه تشجع وأقدم ، ولم يحفل لا بصوت العقل ولا بتحذير الضمير .

وكانت إيفلين وقد راعها منه سحر جماله ، وفطرت ذكائه ، تبادلته الحب مختارة ، وهي لا تفتأ تنظر إلى وجهه الممتنع وتفكر . . . كانت تحبه ولكنها هي أيضاً كانت خائفة . . . كان قلبها موزعاً بين الخوف والطمع . بين الخوف من مستقبل مهديد مظلم ، وبين الطمع في حياة مرفهة شائقة لا يمكن أن تظفر بها في صحبة مثل هذا الشاب الفقير المريض .

* * *

والعجيب في أخلاقها أنها كانت هي الأخرى تتعذب . . . كانت لفرط رغبتها في حياة الحب والأمن والمال ، تثور على نفسها ، وتسخط على حظها العاثر الذي أوقعها في حب شاعر مهدم منكود ، على أنها كانت تحبه ، وكانت تعبه ، وكانت ، رحمة به وشفقة عليه ، تخفي أطماعها المادية تحت ستار من البراءة والعزة ، يذهل الشاعر ، ويلقى

في روعه أنها ملك كريم ! . . .

وانتقد حب ليوبولد ، واضطرم وحيه ، وبدأ شعره الفاتر ينبض بالحرارة والحياة . ولكن إيفلين ظلت خائفة ، وظلت مترددة ، وأبت أن تعاهده على الزواج ، واستمهلته حتى يشفى .

وأذعن الشاعر صاعراً ، وقنع من الحب بالعاطفة ، وراح في شعره الجديدي يتغنى بالطهر والعفة ، جاعلاً من الهوى العذرى مثلاً أعلى .

وإذ ذاك ، تنكر له القدر ، وعاجلته الفتاة بطعنة أصابته في الصميم .

بست من شفائه ، وتبرمت بعذريته ، فانصرفت عنه بغتة ، وشرعت

تغازل فتى ماجناً مستهتراً عريقاً في الحسب والجاه .

وأغواها الفتى بسحر المال والترف ، ففز عليها في مبدأ الأمر أن تخون

قلبها ، وتلوث ضميرها ، وتنكب حبيبها ، وتؤثر المال على الحب .

فقاومت أسابيع ، وجاهدت أشهراً ولكن فتنة الترف أخذتها وغمرة المال

جرفها ، وقوة المرح والشباب ختمت على بصيرتها ، فغافلت ليوبولد ذات

يوم وفرت إلى باريس في صحبة عشيقها !

فرت وفي صدرها لوعة ، وفي قلبها حسرة ، وفي نفسها جمرة من حبها

الأول لا تنفك تنقد تحت رماد الشفقة والحنان والندم وتبكيك الضمير . .

* * *

وما إن تأكد الشاعر من خديعتها حتى صعد ! . . أصابه من فرط

الحزن والاستنكار شبه جنون . هام على وجهه في المدينة مشرد العقل ،

تائه الفكر ، مشبوب الحواس ، ينادى حبيبته على غير جدوى ، ويبحث

عنها دون طائل ، ويدكرها وينشدها ، كما يذكر المريض نبضة الصحة ،

وكما ينشد الغريق ملمس الخطام ..

وجف عقله ، وانطفأ وحيه ، ومات في قلبه الشعر ، فثارت نائرة كبريائه ،

وأبى عليه يأسه إلا أن يخمد في صدره شعلة الشعر وشعلة الحياة معاً ...

وعكف على الموت يطلبه بروح مغامر وعزم جبار . . . طلق الصبر والأمل . . . نبذ التغذية والراحة . . . أعرض عن العقاقير والأدوية . . . فاشتد هزاله ، واشتد سعاله ، واندلعت عيناه من محجريهما ، وبدأ جسمه الواهن الضامر المتساقط يشبه في تجرده اليابس الفظيع هياكل الموتى !
وسرى في المدينة أن الشاعر الشاب سيموت . وعلمت بذلك إحدى شقيقات إيفلين ، فأشفقت على ليوبولد ، وطيرت إلى أختها النبأ ، والتمست إليها أن تزور الشاعر ولو مرة قبل أن يصرعه الأرض ويلفظ في وحده النفس الأخير .

وما أن طالعت إيفلين كلمات البرقية المشؤومة حتى اضطربت . . . اضطربت بالرغم منها . . . تأثرت على دهش منها . . . أحست كأن شيئاً في قلبها يشب إليها ، ويتدفق عليها ، ويدفعها لا إلى الأمام بل إلى الوراء ، حيث الماضي النقي الجميل الذي دفنته عامدة بكلتا يديها . . . وملكها يقظة الندم ، وطفى عليها شعور الرحمة ، فحزمت أمرها ، وغافلت هذه المرة عشيقها ، واستقلت القطار ، وأسرعت إلى ليوبولد . وكان الوقت ليلاً ، وكان الشاعر ممدداً على فراشه ، يحلم وهو يقظان .
وإنه ليسبح في ضباب حلمه الغامض ، وإذا بإيفلين تتمثل له في شكل عروس الشعر الملهمة ، وقد اتشحت بغلالة ناصعة البياض ، وحملت بإحدى يديها قيثارة ، وباليدي الأخرى إكليلاً من الغار ، تلوح به فوق رأسه مبتسمة ، وتنحنى في رفق لتتوج به هامته .
وروعته هذه الرؤيا ، وذكرته بأحلام المجد ، فبكى . ولكن صورة حبيبته كانت جميلة ، وكانت ساحرة ، ففز عليه أن تبددها اليقظة ، فهب من فراشه ، واختطف قلماً وشرع يرسم إيفلين في شكل عروس الشعر الملهمة التي طالما استمد منها وحى الجمال وضوء العبقرية .
وبعد أن أتم الرسم ، حمل الصورة ، وثبتها في الحائط ، ووفق يحدق

إليها بعين ذاهلة وقلب مشدوه .

* * *

وفي تلك اللحظة ، سمع طرْقاً على الباب : ففتح ، وشد ما بهت
وجمد عندما أبصر نفسه أمام المرأة المعبودة وجهاً لوجه ! . .
ولم يستطع إلا أن يصرخ :
— إيفلين ! . .

فنزّلت إليه وانعقد لسانها . هاخا منه ضمور تقاطيعه الفاجع ،
وصفرة وجهه الداكنة ، واتساع اذالة الزرقاء المحيطة بعينيّه ، فصاحت به
وقد تمزق قلبها : لن أتخلي عنك بعد اليوم يا ليوبولد ! . . لن أعود إلى
باريس ! . . سأكتب إلى عشيق أن قد انتهى بيننا كل شيء . وسأمكنك
معك وأظل بجوارك يا حبيبي .

فرمقتها بنظرة متفطرة وغمغم :

— وما الفائدة الآن يا إيفلين .

فصرخت من أعماق فؤادها :

— سأشفيك . . يجب . . يجب أن تشفى . .

وضمته إلى صدرها وهي تقبله ، ثم أرقدته على فراشه ودرته بأغطيته ،
ونامت على مقعد مستطيل بجواره ، وقد وطدت عزمها على إنقاذه ، ورده
إلى الصحة والقوة والشباب والحياة .

وبدأت إيفلين بالفعل جهادها من أجل ليوبولد . نفخت فيه من
حرارة روحها . أوقدت فيه من نار عزمها . صبت فيه عصارة قلبها
وحنانها . ألزمته الراحة ، وعودته السكينة ، ووفرت له الغذاء الطيب ، والدواء
الناجع : والعطف البالغ ، والوفاء العميق . وشيئاً فشيئاً . وفي ظل إخلاصها
النادر . ورعايتها الغامرة ، تألق محيا الشاب ، وامتلاً خداه ، وزايلته
الحمى ، ولم يعد يسعل ويصق الدم .

واستحوذ عليه فرح لا يوصف ، فرح متشعب العوامل متعدد الأسباب . فرح بالقوة التي غمرته . وفرح بالمرأة التي أنقذته ، وفرح بالتوقد العقلي الذي ارتد إليه فجأة وتجلي في شعر رائع مرقص بديع . . وتشجع ليوبولد وأصدر ديوانه الأول : « اليوم خير من الغد » ، فأعجب به النقاد والقراء ، وأصبح اسم الشاعر بين يوم وليلة حديث الصحف .

وتلفتت إيفلين مذهولة وإذا بها حيال رجل جديد لم تعرفه من قبل . رجل حبه الطبيعة بموهبتين خارقتين ، موهبة النبوغ وموهبة الجمال . فأخذت إيفلين بالنبوغ وتأثرت بالجمال ، ولكن قلبها انخلع بغته ، وساورها إحساس خفي بالرعب . .

أبصرت ليوبولد قوياً وجميلاً وشهيراً ، فاستفاقت غرائزها وودت لو أنه كان في الوقت نفسه غنياً ووجيهاً . . .

أدركت أنه برغم شهرته الأدبية سيظل بائساً ، وبرغم مجده الشعري سيظل شريداً طريداً جواب آفاق . فذكرت ماضيها ، وذكرت عشيقها ، وذكرت بارييس ، وتمثلت الزواج برجل معدم ، فاستهولت الزواج وانتابها نفس الإحساس الخفي بالرعب . . .

أجل . . . كانت خائفة . . . كانت تخاف من ليوبولد وهو مريض فأصبحت أشد خوفاً وقلقاً وهو سليم معافى . . . أصبحت تخاف أن تستحيل شفقها عليه إلى حب صحيح ! أصبحت تخاف أن يفتنها مجده وشبابه وجماله ، فتضطر أن تودع إلى الأبد في سبيله أحلام الترف وأطماع الحياة !

وملكتها هذه الفكرة ، ووسوس لها شيطانها قائلاً : « إياك . . إياك والإقدام على تضحية حمقاء . . لقد قمت بواجبك ، وأبرأت ذمتك ، وأنقذت ليوبولد ، فعودي من حيث أتيت ، وإلا التهمك الفقر ، وضاعت

عليك فرصة النجاة ! »

واستمعت إيفلين لشيطانها ، فكتبت إلى الشاعر رسالة وداع ثم غافلته وانسلت من البيت تحت جناح الظلام .

ولم يكد ليوبولد يقرأ خطابها في ضوء الصباح الساطع حتى اختبل ! أذهلته خديعتها ، وروعه نفاقها : وهاله حكم الشقاء والوحدة الذي عادت فقضت عليه به . أحس كأن قلبه ينتزع من صدره وكأن دمه يتزف من قلبه ، وكأن مادة روحه قد جفت ، وحافر قوته ونشاطه قد ذهب إلى غير عودة .

وناء عليه شعور ساحق بالضعف ، فتصور نفسه وقد انحطت مواهبه ، وانهارت قواه وعأوده المرض ، فارتعد كما يرتعد الطفل نبذته من أحضانها أم رؤوم ، ولم يعد يدرى إلى أين يجب أن يذهب ، ولمن يجب أن يسعى . ولماذا يجب أن يعيش !

وكما يلمع البرق في سماء حالكة تجمعت فيها عاصفة ، لمعت في ذهنه فكرة الموت ، فهرع إليها ، وتشبث بها واتجه من فوره صوب الخائط الأبيض العريض حيث كان قد ثبت صورة العروس الملهمة .

وهناك تجاه وحيه ، وتجاه يأسه ، وتجاه الخديعة الشائنة النكراء التي قوضت في مثل لمح الطرف صرح أمله ، انفجرت فيه عاصفة حبه ، فاستجمع قواه وأطلق على نفسه النار ، فخر أمام عروسه الملهمة مضرباً بدمه !

* * *

وهكذا كان لابد للشاعر ليوبولد هالم أن يعرف المرأة ، ولكنه كان ضعيفاً فأحبطته المرأة ثم قتلته !

انتصار العبقرية

« من حياة الموسيقى الفرنسى جوستاف كرواسيه »

« جوستاف كرواسيه من أشهر الموسيقيين الشعبيين الذين تألق نجمهم فى فرنسا فى مستهل القرن الماضى . وهذه قصة حبه الأول الذى كان له أعمق الأثر فى إلهاب عبقريته وتوجيه حياته » .

* * *

كان موسيقياً جواً لا يحمل كمانه تحت إبطه ، ويطوف بالقرى ، عازفاً ألحانه ، مستجدياً من الناس ما يمسك به الرمح .

وكان جميلاً جماً لا خارقاً يأخذ بالألباب . كان مديد القامة ، على الجبهة ، شامخ الرأس ، فى عينيه السوداوين فتنة عذبة حاملة ، وفى سمات وجهه الصبيح دقة ناعمة خلابة ، يضاعف من تأثيرها صوته الرقيق الوديع الحزين .

ولم تكن ألحانه مشجية مطربة ، بل كانت ألحاناً فاترة رخيصة تافهة ، كثيراً ما أثارت السخرية منه والاستخفاف به والشفقة عليه . وكان « جوستاف » يشعر فى أعماق نفسه بأنه فنان ، وأنه موهوب ، ولكنه كان من فرط فقره وبؤسه وفراغ حياته من كل عاطفة كبيرة ، يعجز عن إبداع ألحان مطربة شائقة ، ترضى خياله الفنى ويمكن أن تثير الإعجاب فى نفوس الجماهير .

وهكذا عاش جوستاف قانعاً بحظه ، مستسلماً لحمله . يائساً من مستقبله ، سعيداً بالترز اليسير من المال الذى كان يجمعه من القرويين الطيبين ، وينفقه فى سخاء على نفسه وعلى والدته العجوز العمياء . وكان جماله الرائع يغرى فتيات القرية . ولكنه كان متحفظاً ألياً أنوفاً ، يحس أعمق إحساس وأبلغه ، أن فقره لا يسمح له بالتطلع إلى الحب .

وكان بكرأ في زوجه وقلبه وجسمه . طاهراً في فكره وضميره ونيته . عزوفاً عن الفحشاء والخمر . وعن كل رذيلة تنتقص من كرامته ، وتحط من قدره . بيد أن هذا الكمال الخلقى ، كان يزيد من حسنه ، ويزيد من سحره ، ويلهب في صدور الفتيات نزعة الفضول من نحوه ، ويدفع بهن إلى التفات عليه تهافتاً يشبه تقاطر الفراش على النار .

ولكن جوستاف كان يترفع ، وكان يتراجع ، وكان يبتسم . . . ولما أن كانت تعصف به الحسرة ، ويغلي في بدنه القوى مرجل الشباب ، وتتوق نفسه إلى المرأة والزواج والحب ، كان يلوذ بالله ويصلى . . . يصلى في حرارة وحماسة المؤمن الورع التقي ، فيشعر بالراحة تنتشر في نفسه ، والسكينة تملأ قلبه ، والصنفاء العلوى يفيض منه وينسكب عليه ، ويغمر كيانه فجأة بالعزاء والسلوى .

وظل على هذه الحال حتى وقع له في يوم من الأيام حادث بسيط حول في مثل خطف البرق مجرى حياته . . .

أبصر « شرلوت » بنت أحد كبار المزارعين الأثرياء ، تطل من شرفة بيتها ، وتستمع في لطفة إلى ألحانه ، وتبتسم له وهي تلقى إليه بقطعة فضية رنانة لم يجد بمثلها عليه مخلوق .

أحبها ، ولم يدر كيف أحبها . أحبها على دهش من نفسه وفي غفلة من عقله ، وبرغم الفارق العظيم الذى يفصل بينها وبينه . أحبها بكل قوى حرمانه ، وكل قوى لوعته ، وكل قوى خياله الجامح الذى كان يضطرم في نفسه وينشد وحيّاً لإلهامه وعروساً لفنه .

أما شرلوت فقد شاقها أن تغازل هذا الموسيقى الجميل الفقير ، وأن تقر به وتلاطفه وتعاينه وتتسلّى به . . .

وكانت فتاة بديعة الحسن ، رائعة التكوين ، ذات شعر ذهبي موج . وعينين فاترتين ناعستين ، وفم نائى مليء ، وضحكة مدوية

مجلجلة تنم عن خلق طائش أهوج مستهتر لعوب .
 وكلف بها جوستاف ، وطلق يذهب إليها كل يوم ، ويحوم حول
 بيتها ، ويعزف لها ، ويبادلها عن بعد نظرات الحب والجوى .
 وراقها أن تتصل به ، وتتحدث إليه ، وتخرج إلى التزهة في صحبته ،
 فكانت تغافل أهلها وتلتقي به في المروج البعيدة ، أو الدروب المقفرة ،
 تطارحه الغرام ، وتمثل في مكر وخبث دور العاشقة الواهية .
 وكانت مأخوذة بسذاجته ، مفتونة ببراءته ، تقر به تارة وتعرض عنه
 أخرى ، أسعد ما تكون باللهو به والسخرية منه .

أما هو فكان يعبدها ، كان لا يصدق أن هذه الفتاة الجميلة الثرية
 قد هبطت من عليائها ، ونظرت إليه . فكان يقبل يديها في شكر محبول ،
 ويبحثو أمامها في خشوع ذاهل ويظل يتأملها اللحظات الطوال وهو تائه
 عن فكره ، غائب عن نفسه ، وهي تحالسه النظر : وتضحك من طفولة
 مظهره وتكاد تقهقه .

والغريب أنه لم يشك فيها لحظة . لم يداخله أي سر ظن في صداقتها .
 كان يعتقد أنها بطبيعتها فتاة باشة مرحة . فكان يفرح لفرحها ، ويضحك
 لضحكها ، ويؤمن أنها مثله سعيدة بهذا الغرام الطارئ العجيب المشبوب .
 وتجاسر يوماً فحدثها عن الزواج . فلم تهزه ولم تصده ، بل أقبلت
 عليه تطيب خاطره ، وتسكن من روعه ، وتعهده بأنها لا بد أن تجد له في
 مزرعة والدها عملاً ممتازاً يرفع من شأنه ويمكنه من الاقتران بها .

وطرب جوستاف وانتشى ولم تعد تسعه الدنيا . وشيئاً فشيئاً ، وتحت
 تأثير حبه المضطرم ، وأمله الرائع ، وإيمانه العميق . تفتح ذهنه ، وخفق
 قلبه ، واتقدت عقبريته ، وشرع يضع ألحاناً جديدة غريبة فيها رنة عذبة
 مشجية مؤثرة لم تكن مألوفة في ألحانه من قبل .

وعزف هذه الألحان الجديدة لشرلوت ، فأعجبت بها ، ودهشت لها ،

وأدركت أنها هي التي أوحى إليها . . . فملكها الكبر والزهو ، فأمنعت في التظاهر بالحب ، فأهبطت عواطف الشاب ، وعاد يحدثها عن الزواج . وكان طوال فترة اتصاله بها ، لا يحترمها فقط بل يقدرها . لم يطلب إليها قبلة ، لم يفكر في أن يعانقها ، لم يخطر على باله لحظة واحدة أن يستبيح جلالها وحرمتها .

كان يلثم يديها فقط . وكان في بعض الأحيان ينحن أمامها وكأنه يود أن يقبل موطئ قدميها . . .

هذه القوة منه أثرت فيها وأخضعها فأحست على مر الأيام أنها توشك أن تحب هذا الفتى ، وتوشك أن تهيم به ، وتوشك أن تخرج على طبيعة نفسها وتقاليدها أهلها ومكانة أسرتها وتتبعه . . .

وكانت شديدة الأنفة ، شديدة الكبرياء ، مزهوة مترفعة ، مولعة بالعر والترف والجاه العريض . فلما أحست في نفسها أنها تتحول ، وشعرت بوقدة الحب تسرى في قلبها هالها أن ينقلب الهزل جداً ، وأن يصبح هذا الفقير البائس المعدم إنساناً ، وأن تتزوج هي بنت المزارع الثرى من موسيقى جوال ، فثارت على حبها ، وثارت على قلبها ، وآلت على نفسها أن تنتبه وتتبع وتقطع كل صلة لها بجوستاف .

وتلمصت فجأة واختفت . . . لم تذهب إليه في الموعد الذي كانت قد عينته . لم تحفل بألحانه التي كان يعزفها تحت بيتها ولم تظهر كعادتها في الشرفة لتحبيه . فاستبد به الغيظ والحقد ، وطفق يطوف بالمرزقة كالروح الحائر باحثاً عنها ، متلهفاً عليها ، معللاً نفسه بإمكان الفوز ولو مرة واحدة بنظرة إليها . . .

وأبصرها ذات يوم بين جمع من القرويين أصدقاء والدها ، فحاول أن يتصل بها ، وحاول أن يحادثها ، ولكنها عبست في وجهه ، وأعرضت عنه ، وتولت كأنها لم تعرفه .

وعندئذ عرف جوستاف العذاب ، عرف القلق والحيرة ، واللوعة والحسرة ، والفراغ والذل . ولكنه لم يقنط وأبى إلا أن يجرب حظّه ويحاول أن يستميل الفتاة مرةً أخرى ، بيد أنها ظلت جامدة معرضة ، قاسية غير مكترثة ، فأظلمت الدنيا في عيني الشاب ، واحتواه والسخط واليأس .

ومن يأسه التهب خياله ، ومن حسرته اتقد فكره ، ومن عذابه اضطربت عبقريته فانطوى على نفسه ، واتمس العزاء في فنه ، وراح يبدع ألحاناً نابضة مختلجة حية ، مفعمة بالحزن ، مغشاة بالأسى ، ثم طفق يعزفها في حماسة وحرارة وصدق ، فأخذ بها القرويون ، وتناقلوها ، وأصبحت حديث الناس .

بيد أن هذه الشهرة الطارئة المتواضعة لم تستطع أن تقرر الراحة والسكينة في قلب جوستاف ، فازداد ألمه ، وازدادت لوعته ، وبدأ يفكر في هجر قريته إلى قرية أخرى .

وجمع بالفعل بعض المال ، وتبهاً هو ووالدته العمياء للسفر . ولكن القدر لم يمهله ، ولم يرحمه ، وفي نفس اليوم الذي اختاره للرحيل ، وقع له حادث لم يكن يتوقعه أبداً .

أبلغوه أن شرلوت قد خطبت إلى شاب من وجهاء المدينة . وأن الليلة هي ليلة عرسها ، وأنها سترحل إلى باريس بعد أسبوع في صحبة زوجها . ووقع عليه النبأ وقع الصاعقة ، فأراد أن يرى خصمه ، أن يرى غريمه ، فأسرع من فوره إلى مزرعة شرلوت واندس بين الفلاحين ، وجعل يطوف بالبيت ويرقبه . حتى لمح الشاب الوجيه . فألفاه جميلاً نظيفاً لامعاً متأنقاً ، كأروع ما يمكن أن يكون عليه فتى باريسى أصيل . فجن جنونه ، ونهشت الغيرة قلبه . وختم الحقد على بصره وبصيرته ، واستحال في نفسه إلى رغبة مضطربة في الثأر والانتقام .

عز عليه أن تخونه حبيبته . كبر عليه أن يجبن ويستخذي ويدعها ملكاً حلالاً لذلك الفتى الغر . فانتضى خنجره ، وانسل تحت جناح الظلام ، وكن خلف الأشجار تحت نافذة مخدع شرلوت ، ولبث في مكانه يتحين الفرص كي يثب من النافذة ويدخل المخدع .

وكانت الثريات قد أوقدت في البهو الكبير ، والمدعوون إلى حفلة العرس بدأوا يتوافدون ، وشرلوت في مخدعها تلبس ثوب العرس وحوها طائفة كبيرة من السيدات والفتيات .

وكان من عادات تلك القرية أن تترك العروس قبل الإكليل فترة تخلو فيها بنفسها . لتؤدي فريضة صلاة معينة للعدراء مريم . فلما دنت الساعة ، وانصرفت السيدات والفتيات ، وبقيت شرلوت بمفردها وهمت بأن تجثو على المرحم المقام تحت صورة العدراء ، وتشرع في صلاتها ، وثب جوستاف ، ودخل المخدع ، ووقف أمام شرلوت وجهاً لوجه . وما إن رآه حتى صرخت : أنت ؟ ...

وأجابها وعيناه تقدحان بالشرر : مكانك ولا تنبسي بكلمة ! لقد عذبتني وخدعتني وغررتني ! كنت أضحوكة في نظرك وملهاة لفراغك ، ولعبة في يدك ! . . ولطنتي حباً بك ثم انصرفت عني وتركتني أتمزق ذلاً وحسرة ويأساً ! . والآن تريدني أن تتزوجي وتسعدي على حساب يؤسي وعاري وتعاسي ، ولكني لن أدعك لغيري ! . . لن أدعك لغيري ! . . أسمعيني . . .

ولوح بخنجره ، فدعرت الفتاة ، واستجمعت قواها ، وأمست بيده ، وحاولت أن ترتمي على صدره ، وتضمه إليها ، وتغريه بها ، كي تفر عزيمته لحظتها ثم تعود السيدات والفتيات . ثم غمغمت : جوستاف . . . إنني أحبك ! . . ولكنها إرادة والدي ! . . هو الذي أجبرني على هذا الزواج إجباراً . . .

فقال جوستاف وهو يهدير : انت غادرة ! . . .

وأطبق على فيها بكفه ، ورفع ذراعه وهم بأن يغمد الحنجر في صدرها . وفي تلك اللحظة التي لم يكن يتصورها أو يحلم بها ، ارتفعت أصوات مجلجلة رخيمة مشجية . وسمع جوستاف لأول مرة في حياته ، سمع ألحانه . ألحانه هو . ألحانه الجديدة ، ألحانه البديعة ، يغنيها المدعوون في سرور وبهجة وحماسة منقطعة النظير .

ودهش وارتبك وارتعشت يده . فلم تمهله شرلوت ، وتشبث بذراعه ، ونحبتها عنها ، وهتفت به وهي تحديق إليه ، وتتأمل جماله الناضر القوى ، وتقارن على الرغم منها بينه وبين عريسها الأنيق الخزيل الضعيف : لماذا تريد أن تقتلى يا جوستاف ! . ألم تسمع ؟ . . ألم تسمع بأذنك ؟ . لقد أصبحت حديث القرية كلها ! . . اسمك على كل لسان ! . . ألحانك يغنيها الجميع ! . . كنت بالأمس خاملا فاستفاض عليك بين عشية وضحاها ضوء ساطع من شهرة لم تكن لتحلم بها ! وكل ذلك يا جوستاف بفضل أنا ! . أنا التي حركت هامد فنك ! أنا التي استنهضت ميت عزيمتك ! . . أنا التي أضرمت فيك شعلة العبقرية ! . . ولولا إغراضى عنك وفرارى منك ، ما تألمت ، وما تعذبت ، وما استطعت أن تبدع تلك الألحان الزاخرة بالصدق ، الفياضة بالحرارة والحياة ! . فيجب أن تشكرني بدل أن تحاول قتلى ، ويجب أن تفرح وتبهج لأننى أنقذتك من وطأة البؤس ، وهديتك إلى مورد كسب يمكن أن تعيش منه مرفوع الراس أنت يا من كنت بالأمس تطوف القرى لتستجدى ! . .

وصاحت به : اخرج . . . اقفز من النافذة ، وانخرط في سلك المدعوين . . . فاعظمهم من كبار وجهاء وأثرياء باريس . . . سأعرفك بهم . . . سأخدمك أيضاً . . . سأقول لهم انك أنت صاحب تلك

الألحان . . . أنت النابغة المغمور . . . ولسوف أجد بينهم من يقدرك
ويساعدك ويشجعك على الذهاب إلى العاصمة حيث يعترف هناك بنبوغك
وعبقريتك !

فقال، جوستاف في شبه أنين : وما جدواى من الشهرة والجد إذا كنت
أفقدك ؟

فقالت وهى ترتجف وتكبح نفسها خشية أن يؤثر فيها جماله ويعود
فيتمكن منها سلطان حبها القديم : أنا لست لك يا جوستاف ! . .
ليس فى وسعى أن أكافح معك حتى تصل ! . . لقد نشأت فى
أحضان العز والجاه والترف ، وليس فى مقدورى أن أحتمل الفقر مع
الجهاد وإلا أشقيت نفسى وأشقيتك ! . . أنا صريحة معك ! فاخرج . .
اذهب . . اهبط إلى المدعوين وضع مصلحتك ومجدك ونجاحك فوق
حبك . هذا صوت العقل فاسمعه يا جوستاف ولا تهدم حياتى ومستقبلى ! .
وانحنى على يده وطفقت تلثمها . فتأثر الشاب ، وأحس أن لاحيلة
له فيها : ولا قدرة له على تبديل نفسها ولا شجاعة له على قتلها فى اللحظة
التي بدأ يشهر فيها ، ويرى ثمرة عبقريته وقد أبنت على يدها . فنظر إليها
طويلا وأوشك أن يصرخ ويبكى . ولكنه تمالك نفسه ، وضبط
عواطفه . وضم الفتاة إلى صدره فى عنف وقبلها ، ثم قفز من النافذة
ودخل البهو الكبير . واندس بين المدعوين .

وبعد لحظة برزت شرلوت فى ثوب العرس فاتنة كالرؤيا ، متوهجة
كالشمس . فما إن لمحت جوستاف حتى صاحت بالمدعوين وهم يغنون :
عندى لكم مفاجأة سارة . . أتعلمون من شرفنا الليلة بوجوده بيننا ؟ .

فصمت الكل وتطلعوا إليها . فأردفت باسمه : هو المسيو جوستاف
كرواسيه صاحب الألحان الرائعة التى تنشدها الآن ! . . .
فضج الكل بالهتاف والتصفيق ، وأحاطوا بالقروى البائس الذاهل ،

وطفةوا يهنثونه وهم يرددون ألحانه .

وفجأة ، وفي غمرة الفرح والصخب والغناء ، برز من وسط الجمهور ، رجل قصير القامة ، أصلع الرأس . متكرش البطن ، أنيق ووجيه ورصين ، وتقدم صوب جوستاف . ثم حياه باحترام وقال له : إن ألكانك يا سيدى جاوزت حدود قرينتك . وترامت إلى مدينة النور ! . . إن لك فى العاصمة طائفة كبيرة من المعجبين ! . . فأنا ، صاحب أكبر دار لنشر الألحان والموسيقى فى باريس ، أعرض عليك طبع ألكانك وإذاعتها مقابل مائة ألف فرنك أدفعها لك فوراً إن قبلت ! . .

فجحظت عينا شرلوت من وقع المفاجأة . وبهت جوستاف ولم يتكلم . فأخرج الناشر من جيبه دفتر الشيكات واستطرد : اكتب لى نزولك عن خمسة ألحان فقط وأنا أدفع لك المائة ألف فرنك . وأعدك بأن أدفع مثلها لكل خمسة ألحان أخرى ! . .

فاضطرب جوستاف ونظر إلى شارلوت . ولكى يكيدها ويثأر منها ويسحقها ، أسرع فكتب نزوله وتناول الشيك ودسه فى جيبه وهو صامت .

وهلل المدعوون ، ودوت أكفهم بالتصفيق ، ثم عزفت الموسيقى فاقترح الناشر أن تراقص العروس الفنان النابغة تقديراً له . . فاندفعت شرلوت نحو الشاب ، مستضيئة الوجه ، ملتمة العينين ، مشرقة الأسارير ، وارتمت به فى الحلبة الفسيحة ثم همست فى أذنه بعد قليل وهى تحمله فى تيار الرقص كأنها تلقى به فى أعصار : جوستاف . . اسمع . . ما رأيك . . ما رأيك لو عصفت انا الآن بكل شئ ؟ . .

وصبت فى عينيه نظرة عميقة متوسلة مبتهلة وأردفت : كلمة واحدة منك وأنا أطرد عريسى وأتزوجك ! .

فحدق إليها طويلا . حدق إليها لاهثاً ثم قطب جبينه ، وأقصاها

بعض الشيء عنه : وغمغم في صوت واضح المخارج باثر النبرات : كان
يجب أن تحييني وتضحى من أجلى وتؤمنى بي ! ..
ثم دفعها نحو عريسها وهي تختلج كالطائر المذبوح . وأسلمها
إليه . ولما ألقى نفسه بين المدعوين وحيداً ، شريداً ، ممزق الفكر والقلب
والروح ، أراد أن ينسى ، أن يلهو . فتلفت حوله كمخبول ، فوقع بصره
على الناشر الأصلع ، القصير القامة ، المتكرش البطن . فابتسم له ثم طوقه
بذراعه ثم اندفع به في الحلبة الفسيحة ، وطلق يراقصه وهو يضحك
ويقهقه ...

بين الحقيقة والخيال

« من حياة الشاعر الروسى فيدور ميرسكى »

كان كلما رآها أحس قلبه يخفق ، وخياله يلتهب والخواطر والأفكار تنبثق من ذهنه فجأة ، ثم تفيض عليه وتغمره ، كأنما هى تنفجر فى صميم نفسه من ينبوع مقدس غير منظور .

وكان لا يلبث ان يعود إلى غرفته الساكنة ، حتى يتمثلها أمامه ، فى ثوبها البنفسجى الرائع ، وفى هدأة عينها الحالمتين ، فيشرع من فوره فى نظم قصائده ، وقد انتابته شبه لوثة : وعراه من فرط النشوة ضرب من خيال .

والحق أن الشاعر الروسى الشاب « فيدور ميرسكى » لم يستوثق من نبوغه ، ولم يؤمن بعبقريته ، إلا يوم أن وقع بصره على الفتاة الساحرة الجميلة « أولجا » .

أحب فيها براءتها الناضرة ومحاسنها الزاهرة ، وفتنة صوتها وعذوبة حديثها ، وروعة البؤس المنسكب عليها انسكاب الألم العميق على وجه ملك هبط من السماء .

بيد أن هذا الحب لم يأسره إلا لأنه أيقظ عقله . وألّب ذهنه ، وأضرّم فيه تلك النار الإلهية التى كان يحلم بها ، نار الوحي والإلهام تنبعث من عيني امرأة ! . .

ولقد هام الشاعر بحبيته هيام الناس بمنظوماته وقصائده . كان يخبها ماثلة فى شعره . ويحبها ماثلة فى شهرته . ويحب فيها جمالها الباهر ، وشعلة العبقرية التى كانت تستعر فى صدره كلما رآها أو فكر فيها . أو أسعده الحظ فاستطاع أن يختلس منها قبلة . .

وكانت أولجا تشتغل عاملة في أحد مصانع النسيج . وكان فيدور سليل أسرة عريقة ولكن الحب الذي لا يعرف الجاه والمال ، ولا يقر الفقر أو الغنى ، ولا يخفل بالمجتمع والناس ، هذا الحب الطاهر القاهر البريء ، وحد بين الشاعر والعاملة في حلم رائع ، وأمل مشبوب ، ودنيا من الفرح والبهجة والصفاء غير هذه الدنيا . .

وأحس فيدور على مر الأيام أن لا بد له من حبيبته ليعيش ! . . أحس أنه بدونها لن يفكر ، وبدونها لن ينتج وبدونها لن يستطيع أن يرى الحياة فيبدع الشعر ويخلق الجمال ، وهكذا أراد أن يتزوجها ! . . وكان وحيد أبويه . وكانت أمه تفخر به ، وتعزز بمواهبه ، وتأنى إلا أن تزوجه بفتاة من صفوفه الأسر الأرستقراطية . فلما فاتحها في أمر حبه ، وذكر أمامها اسم أولجا ، ثار ثائرها ، وأمرته بأن يغادر موسكو ويسافر من فوره إلى باريس عله يتعزى هناك وينسى . .

ورفض الشاب أن يطيع ، وأصر على الزواج بمن يحب . فكبر على السيدة النبيلة أن تخضع ، فانهزت فيدور وعيرته ، فأغلظ لها القول ، فطرده من قصرها شر طرد .

وعاش الفتى سنة طويلة بعيداً عن أسرته ، يخترف التمثيل تارة ، ويمارس مهنة التدريس تارة أخرى ، ويغالب الفقر والبؤس جهده ، ويحاول أن يجمع شيئاً من المال يمكنه من الاقتران بحبيبته . . ولم يكن قد ألفت حياة الجهاد فجف عوده ، وذبلت نضرتة واضطربت أعصابه ، وشاع فيه ضرب من السوداء الحاملة سرعان ما انقلب إلى جهامة عميقة ، وحزن شديد وانحطاط في القوى .

وعلمت أمه بما أصابه ، فتحرك قابها ، واستفاق ضميرها ، وخشيت على ابنها عقبي المرض . فأرسلت تدعوه إلى قصرها بعد أن طيبت خاطره ووعدهت بأن تزوجه بأولجا .



الراعية النائمة . للرسم فرانسوا بوشيه - متحف اللوفر



بازيس وهيلين . للرسام لويس دافيد - متحف اللوفر

وارتدت إلى الشاعر بهجة الأمل . فاصطحب حبيبته وذهب إلى القصر ..
ولم تكد المرأة الأرستقراطية العريقة ، تبصر أوبلجا ، حتى افتننت بها .
وراعتها منها براءتها الأصيلية وسذاجتها المرحية ، وصدق حبها لفيدور ، فألت
على نفسها أن تزوجها منه ولو كره والده وعارض في هذا الزواج أفراد
أسرته جميعاً . .

وتمت الخطبة بالفعل . وأوشك فيدور أن يختبل من فرط السعادة . .
أما أوبلجا فظلت هادئة ساكنة ، تعد معدات العرس وهي لا تكاد تصدق
سمعها وبصرها .

وكان الشاعر يلحظها وهو ذاهل . كان يريد أن يراها فرحة مبهجة
مهللة ، ولكن أوبلجا كانت ساجدة في هدوئها مستغرقة في صمتها ، كأن
في ذهنها شيئاً يخفيها وكأن نفسها الصافية تشرف بالرغم منها على مستقبل
مظلم مجهول . .

وشاءت الأقدار أن تتم النبوءة التي راود طيفها الأسود خيال أوبلجا ،
فأصيبت الفتاة بحمى خبيثة لم تمهلها أكثر من عشرة أيام وقضت عليها
قبل يوم العرس بأسبوع . .

وانقضت هذه الفاجعة على فيدور انقضا الصاعقة ، فتفطر
قلبه ، وانسحق بدنه ، وعأوده اضطرابه العصبي وأقفر ذهنه من كل
فكرة وكل صورة ما عدا أوبلجا .

وهام فيدور بالصمت ، وكلف بالوحدة ، وانكمش واستوحش
وانطوى ، وطفق يقرض الشعر كمن يشرب الخمر ، لا ابتغاء النسيان .
بل رغبة في خلق عالم خيالي ينعش الحنين ، ويبعث الماضي ، ويجدد
الذكرى . .

واحتمل هذه الحياة زمناً طويلاً . ثم عصفت به العزلة وأمضته الحسرة ،
فوقع له في يوم من الأيام هذا الحادث الغريب . .

تلقى دعوة من أحد أصدقائه لحضور حفلة ليلية راقصة أقيمت لغرض خيري . فاستقل عربته وانطلق بها إلى مكان الحفلة . .

وأثناء ليهم باقتحام أحد الميادين الكبيرة . وإذا بحركة المرور تتعطل فترة . فتمهل فيدور وارثد بعربته وأشعل سـ بجارة وطفق يتأمل في لفحة وشوق أضواء الميدان الفسيح . وفي تلك اللحظة . أبصر فتاة بالقرب منه . . أبصر فتاة في صورة أولجا نفسها . واقفة على الرصيف تنتظر انطلاق حركة المرور وتحقق إليه بعينين عميقتين ثابتتين . .

تفرس فيها وانخلع قلبه . تأملها ولم يصدق بصره . . كانت هي أولجا بعينها . بشعرها الأشقر اللامع وبسمتها الخادئة الصافية . ونور مقلتها الواسعة الذي يبرق على خديها الناضرين .

لم يتردد وترك عربته وأسرع إليها . فأجفنت وتراجعت . فاستفسرها عن المكان الذي تقصده . وشد ما بهت عند . علم أنها في طريقها إلى نفس الحفلة التي هو ذاهب إليها . .

واحتواه فرح لا يوصف . فعرض عليها أن يذهبها إلى الحفلة سوي . فتمنعت ثم قبلت ، ثم صعدت إلى العربة . وجلست بجوار فيدور . ومضت تحقق إليه بعينها العميقتين الثابتتين وهي صامتة . . وانطلق بها ينهب الأرض حتى بلغ القصر العظيم الذي أقيمت فيه الحفلة .

وهناك تأبط ذراعها ، ودخل بها البهو الكبير . وقدم إليها بعض المشروبات . واستأذنها في أن يراقصها . .

وظل يراقصها وهو تائه عن نفسه . غائب عن وعيه . ساهج في غمرة سعادته . حتى انتهت الحفلة ، فعرض عليها أن يعود بها إلى منزلها . فشكرته وقبلت وهي ما تفتأ تحقق إليه بعينها العميقتين الثابتتين . . ولم يسألها عن اسمها . ولم تسأله من هو ، وليشت بجواره صامتة

ساكنة ثم لوحث بذراعها وأشارت إلى أنهما قد بلغا البيت . . .
وتلفت فيدور فأبصر أرضاً واسعة . أرضاً مظلمة هامة . تنبثق منها
الأشجار ويحيط بها سياج حديدى . فترجل وساعد الفتاة على النزول .
ولكنها ترددت لحظة وانكلمشت وظلت قابعة فى جوف العربة ترتعش من
فرط البرد . فأسرع وخلع معطفه وأضناه عليها ، وقال وهو ينحني أمامها
ويقبل فى لوعة وشغف يديها الصغيرتين : « أريد أن أراك ! . . أين يمكن
أن أراك يا معبودتى ؟ . . تكلمى . . . »
فرفقته بنظرة فائرة ولم تجب فصاح بها كاتخيلون : « لا بد أن
أراك » ! . .

فغمغمت وهى تبسم : « هنالك فى نفس المكان وفى نفس الساعة ! . .
فى الميدان الكبير ! »

وفتحت السياج الحديدى . ومرت منه كالسهم . وغابت فى بطن
الظلام . وفيدور يحدق إليها وإلى معطفه الفضفاض الذى انسدل عليها
كما ينسدل الستار على أجمل وأروع مشهد فى هذه الحياة ! . . .
وفى مساء اليوم التالى أسرع فيدور إلى الميدان الكبير ولكنه لم ير
أحدًا . . . لم ير غير العربات والخيول وأفواج السابلة . فعاد بعد ذلك
أيضاً . ثم عاد للمرة الثالثة . ثم ضاق ذرعاً بصبره وبأسه وحسرتة . فذهب
إلى البيت . إلى بيت أولجا المبعوثة . إلى المكان المظلم الذى رافقها إنيد .
وكان الوقت بهاراً . وضوء الشمس ساطعاً . فلم يكذب بل ولم يكذب
ينظر . ولم يكذب يتأمل . حتى جمد الدم فى عروقه .

أبصر نفسه تجاه مكان يعرفه . أبصر نفسه أمام مقبرة ! . . المقبرة
التي دفنت فيها أولجا ! . . ورأى السياج الحديدى . سياج المقبرة . . .
وشاهد معطفه الأسود مدلى على السياج عند باب المقبرة ! . . .
وعندئذ . عندئذ فقط . أدرك الشاعر المنكود أنه كان يحلم وهو

يقظان . وكان يعيش وهو نائم : وكان يرافق ويخاطب ويحب طيف خيال .

أدرك أن ذهنه قد تشوش وعقله قد اختلط وأعصابه قد انهارت . وطيف أوجها لن يفارقه إلى الأبد . فتقدم إلى السياج الحديدى ، وفتح الباب . ودخل المقبرة . وهناك . فى هدأة الأصوات والأرواح وعلى مرأى من حفارى القبور ، أطلق الشاعر فيدور ميرسكى على نفسه الرصاص : فخر صريعاً أمام ضريح أوجها ! . . .

الفنان والأفنى

« من حياة الموسيقى الإيطالية دونيتزيتى »

ولد الموسيقى الإيطالى الأشهر « جايتانودونيتزيتى » فى مدينة « برجاما » وذاع صيته فى أوربا عندما وضع أوبراته العظيمة : « المحظية » و « أكسير الحب » و « دون باسكوال » وتلك التحفة الفنية الرائعة : « لوتشيانى لامرمور » وإلى القراء قصة حبه الذى أيقظ فيه ملكات الفن وأضرم فى عقله وروحه شعلة النبوغ .

* * *

كان دونيتزيتى إذ ذاك فى نحو العشرين من عمره . وكان فى شاحب اللون . غائر العينين . واسع الجبهة . مشعث الشعر ، كثيراً حزينا . أروع ما يكون بالصمت والجهامة والعزلة ، وأسعد ما يكون بالتأمل والمطالعة والتفكير .

وكان يكره اللهو والمرح . ويكره المزاح والمجون . ويكره المرأة ويخشأها ويعتقد اعتقاداً راسخاً أن فى كل امرأة رجساً من عمل شيطان .

وكانت فكرة الخطيئة مستولية عليه ونزعة الطهر والتبتل متمكنة منه حتى لقد خطر له ذات يوم أن يودع العالم . ويحتجب فى دير ، وينقطع طوال حياته لوضع الترانيم الدينية بمجد بها الشخصية الوحيدة التى كان يحبها ويقدرها . ألا وهى شخصية مريم العذراء .

وكان لفرط حبه العذراء لا يستريح إلا إلى العذارى ، ولا يطمئن قلبه إلا إلى الفتيات الصغيرات اللواتى يجمعن إلى سحر الأنوثة الطاهرة ، فتنة الطفولة ، وبراءة الأفكار والأحلام .

والعجيب فى أمره أنه كان يعيش بروح فنان وعقل كاهن . كانت روحه الفنية تصبو إلى الحياة ، وتهفو إلى المرأة ، وكان عقله

الدينى التجردى ينزع إلى الخيال . ويسبح فى السماء ، ويتوق إلى شبه اندماج معنوى عميق فى هيكل أنثوى لا وجود له فى هذه الدنيا .

والواقع أنه كان إنساناً ، وكان شاباً ، وكان تحت مظهره الواجم مكتئب الضعيف . قوى البنية . صلب العضل . متين الأعصاب . يخشى الحياة وهو يطلبها . ويخاف المتع وهو ينشدها . ويكره المرأة وهو يسعى إليها . ولكن من طريق القلب والروح .

وعبثاً حاول دونيتزى أن يكتب بصحبة الفتيات الصغيرات الساذجات . فقد كان يشعر أن ثمة شيئاً ينقصه وأن ثمة فراغاً نفسياً ممزقاً يستحوذ عليه . كلما اتصل بهن . واستمع إليهن . وأحس جفاف سحرهن التدف . وغباء عقلمهن اليافع ، وطفولة أجسامهن الباردة .

وظل دونيتزى يخدع نفسه . ويخدع عقله . ويخدع عواطفه . حتى صادف المرأة التى أيقظته من سباته . وهزت قلبه وروحه من الأعماق . .

وكانت هذه المرأة تدعى « فرجينيا » وكانت زوجة تاجر ثرى . أعجب بدونيتزى . وعطف عليه ، وفتح له أبواب بيته وأسند إليه وظيفة مدون حساب فى مكتبه .

وكان الموسىقى انشاب فقيراً . أحوج ما يكون إلى حياة مادية مستقرة ليستطيع أن يعيش وينتج فلماً أحسن إليه التاجر الثرى . عرف الشاب فضله ، وقدر جميله وأخلص له .

وكانت فرجينيا قد نحت دونيتزى فى مكتب زوجها . فراعها منه صمته الحالم . وسكونه الواجم . واتقاد عينيه . ورقة حديثه . ورخامة صوته . وتلك القوة الروحية الغربية التى كانت تم عن نبوغه . فطاب لها أن تستدرجه وتغويه ، عساها أن تفوز بلذة جديدة خارقة . هى لذة قتل الفكر فى عقل مفكر . وخنق القلب فى صدر فنان . وإذلال النبوغ

فى نفس عبقى . وإخضاعه لسيطرة المرأة وسيطرة البدن وسيطرة الحب .
وكانت فرجينيا سيدة أرستقراطية مهيبه ، ذات عينين سوداوين
واسعتين ، وأنف مستقيم ، وفم دقيق . وجبهة عالية صارمة ، تبرز فيها
العزة ، ويلتمع فى صفحتها الضقيلة جلال تلطفه ابتسامة الفم الدقيق .
ونظرة العينين السوداوين الواسعتين . .

والحق أن نظرتها كانت سر جمالها . .

كانت نظرة ناعسة كالألم . ناعمة كالأمل . مظلمة كالسر .
مشرقة كالشمس . تتعاقب عليها شتى العوامل النفسية فى سرعة عجيبة
تعاقب الغيوم على سماء يوم من أيام الخريف . .

وكانت فرجينيا فى نحو الأربعين من عمرها . فارعة القد ، ممشوقة
الأعضاء . ضافية الأنوثة . أشبه بتمثال الهة اغريقية نقلته عبقرية فنان
لاتينى إلى أرض إيطاليا .

وكان دونيتزيتى معجباً بها فخوراً بأنها امرأة سيده . على أن إعجابه
كان احتراماً . وتقديره كان إجلالاً . وصمته أمامها فى بعض الأحيان
كان روعة وطاعة وخشوعاً .

ولم يفكر أبداً فى رفع بصره إليها . ولم يخطر على باله أن يتفكر
فيها . ولم يدر فى خلده لحظة واحدة أن من الممكن أن تنظر هى إليه .
أو تفكر فيه . أو تهتم به . .

بيد أنه كان فى الواقع يستغرق اهتمامها كله . كانت تنفر به إليها فى
تحفظ . وتتودد إليه فى حذر . وتجامله وتلاطفه فى مكر وخبث ، وهى
تقبل عليه تارة وتعرض أخرى . أحرص ما تكون على إضرام نار الحب
فى صدره دون أن يدرى .

وحمل الشاب هذا الود منها على محمل العطف . فاضآن إليها
واستأنس بها . وأحس فى قرارة نفسه شيئاً وديعاً لطيفاً يدفعه إليها . . .

وكان مايزال واقعاً تحت تأثير نزعته الطهرية السامية فخيّل إليه أن فرجينيا هي مثال الشرف والاستقامة والعفة ، فازداد إعجاباً بها وازداد احتراماً لها ، وبات يشعر أن صداقتها نعمة أسبغها الله عليه . وقوة في وسعه أن يستمد منها شتى الفضائل . . .

وأدركت المرأة ما يعتمد في نفسه فتشجعت ، وأسرفت في مجامعته . وأغرقت في التودد إليه ، ثم تمنعت بغتة وصدت عنه ، ثم أقبلت عليه فجأة ، وغمرته وهو مذهول بمختلف آيات العطف والرعاية والحنان . . . وكان دونيتزيتي كمن يتقاذفه بحر متلاطم الأمواج . بهت ولم يفهم ، دهش ولم يفكر . أحسن بشيء من القلق والخوف ، ولكنه لم يشأ أن يصارح نفسه وآثر الصمت والسكون والانطواء .

وعلى الرغم منه ابتعد عنها ، وبدأ يتجنبها ، ثم حزم أمره وكف عن زيارة بيتها .

ولم يكد يفعل حتى اضطرب . شعر أنه يتألم . أدرك أنه يتعذب . أحس على دهش منه أنه في حاجة إلى تلك المرأة ، وأنه لا بد أن براها ولا بد أن يجلس إليها ، ولا بد أن يتصل بها اتصالاً روحياً دائماً ليستطيع أن يعيش . فلكه القلق ، واستبدت به الحيرة ولم يجد بداً من الخضوع والتسليم . وذهب إليها صاغراً متخبطاً . ذهب إليها كالأعمى . فما إن رآته حتى رحبت به ، وهلت لمقدمه ، ودعته لتناول العشاء .

وكان زوجها متغيباً في رحلة إلى روما . فانفردت بالشاب ، والتقت إليه بعد العشاء أن يجلس إلى البيانو ويعزف لها قطعة من تأليفه .

وساد الصمت الحجرة وانبتقت الأنغام رقيقة حزينة ، ثم تصاعدت وتماوجت واتقدت ، ودبت في تضاعفها قوة حافلة بالحب ، زاخرة بالحياة . فهضت فرجينيا ولم تحفل . نهضت وهي ثابتة ، نهضت وهي عازمة . وطوقت الشاب بذراعيها ، وطبعت على فم الضامر المرتعش قبله ! . . .

وتهاوى الفتى على نفسه وخيل إليه أنه يحلم . فتعلقت به وقبلته ثانية فاختلج وتنبه وصحا .

وكانت المرأة يجمعها بين ذراعيه تنتفض أنفاسها الحارة وتلهم شفثيه ، فاقشعر بدنه رعباً ولم يرها . . . أجل لم يرها . . . لم يبصرها . . . بل أبصر الآخر . . . أبصر زوجها . . . حليلها . . . ولى نعمته . . . الرجل الذى آواه وأطعمه وأنقذه . فثار ثائره ودفع بالمرأة وصرخ « كلا . . . كلا . . . أبداً . . . » واندفع صوب الباب . فتشبثت به فتملص منها ، فجن جنونها وصاحت : « لن تخرج » فاستجمع قواه ، ودفع بها ، فسقطت على الأرض تلهث حرقة وكمداً وبغضاً . . .

وانطلق الشاب كالمعتوه ، ودخل حانة وطفق يشرب . طفق يشرب وهو يبكى . وكان يبكى وهو يفكر . يفكر فى أنه أحب فرجينيا وخان بالروح والقلب والضمير ذلك الرجل الطيب الذى آواه وأطعمه وأنقذه ! .. وما كاد يتأكد أنه يحبها ، حتى غشيه الرعب ولم يعد يدرى ماذا يجب عليه أن يفعل . أينبغى أن يظل فى عمله أم يجب أن يقدم استقالته فوراً ويمضى ؟ . . .

ولكن أين يذهب ، وإلى من يلتجئ ، وأى الأبواب يطرق بحثاً عن عمل ؟ . . .

واسودت الدنيا فى عينيه ، وعزت عليه راحته . فآثر أن يبقى . . . وارتقى فى غمرة العمل كمحموم وطفق يشرب الخمر لينسى . غير أن التجربة كانت أمامه ، فاشتد ذعره . واشتد قلقه ، وعصفت به الحيرة ، وتطور حبه لفرجينيا واستحال إلى عاطفة شاذة غريبة يمتزج فيها الوله بالخوف ، والعشق بالكراهية .

وتحت تأثير هذه العاطفة انخلع فكر دونيتزيتى . وتشوش واضطرب ، واحتلته الوسوس وهاجمته الأطياف والأحلام والرؤى .

وبدأ الرعب يعيث بعقله . فكان يرى فرجينيا في صورة أفعى تزحف اليه
وتعتقد عليه وتنفث سمها فيه . فارتعد ثم يهرخ ويهذى . ويهرع إلى
الحمر على يحد فيها غزاء وسلوى .
ورضى المسكين بخطفه . وقاوم حبه جهده . واعتقد أن المرأة
ستنصرف عنه وترحمه .

ولكن فرجينيا الغادرة ، أمهله شهرًا ، شهرًا طويلا . ولما يئست من
إخضاعه ، ويئست من عودته أوغرت صدر زوجها حقداً عليه . فأبغضه
الرجل . وفصله من عمله .

ورزح دونيتري تحت وطأة البؤس . وقاسى مرارة التشرد واكتوى
بنار الحرمان . وعندئذ عادت إليه المرأة . .

برزت إليه الأفعى . كانت تتسلل في إثره وهو لا يدري . كانت
تسقط أخباره وهو لا يعلم . فلما صرعه الفاقة . أسرعت إليه . وسامته .
سامته على ضميره بالوظيفة ، وسامته على شرفه بالمال . فاستعصم
بوفائه لزوجها . وبما كان قد أصبح يشعر به من كراهية لها . فثار
ثأرها . وآلت على نفسها أن تحطمه .

وبما كان لزوجها ولها من واسع النفوذ في مدينة برجاما وفي مختلف
أنحاء إيطاليا ، شرعت تشوه اسم الشاب في دوائر الأعمال . وتلفق
عليه التهم ، وتحذر منه أرباب المصالح ، وتصوره لهم في صورة الموظف
المختال . فأغلقت جميع أبواب العمل في وجه دونيتري . وسدت أمامه
سبل العيش . وعضه الفقر بنابه . وأنشبت فيه الجوع المروع مخالبه .
وفي ذات مساء ، وقد فقد الشاب كل أمل في الحياة . دخل حجرته .
وأوصد عليه بابها ، وفكر في الانتحار .

وظفك يذرع الغرفة وهو مشفق على نفسه . متهيّب من فكرته .
موزع القلب بين الإقدام والإحجام . وفجأة لمح في زاوية الحجرة حبلا .

فالتقطه . وربطه في حلقة السقف . واتأد قليلا . ثم حلق إلى الجبل وهو يرتجف .

وإنه لينعم النظر فيه وإذا بالجبل يماوج ويتلوى . ويتخذ في نظره الجبل المشدود صورة الأفعى .

وأحس بالأفعى تلتصق به . وتلتف حول عنقه . وتضيق عليه الحناق . وتوشك أن تقتله . فانتفض انتفاضة هائلة وصرخ : « لا . . . لن أموت من أجل امرأة ! »

وارتمى على فراشه خائر الأعصاب منهوك القوى . . . فعاجله شيطان يأسه وأهاب به : « وإلى أين تريد أن تذهب ومن أين لك العمل . وكيف يمكن في غد أن تعيش ؟ . . . الموت خير لك وأولى ! »

فعاد ينظر إلى الجبل . ونهض بغتة وقد عزم . وفي تلك اللحظة . في تلك اللحظة فقط . أحس موجة عاتية . موجة طاغية . موجة من نور تتدفق من صدره . وتغمر عقله . وتجرفه كما تجرف الريح ورق الشجر . وسمع صوتاً آخر قوياً مدوياً يهتف به : « ومم تخاف ؟ . . . وعلام تبحث عن عمل ؟ . . . أأست مؤمناً بنفسك ؟ أأست فناناً ؟ هذا هو عملك ! . . . فجرب حظك إذن . وامتحن نبوغك . ولذ بفنك . أثار من البؤس بالعمل . ومن الحب بالفن ، ومن المرأة بالمجد ومن الموت بالحياة ! . . . »

ولفه الصوت وطواه . وغيبه في لجة وضاعة من خفة الأمل وفرحة العزم . فجذب الجبل في عنف وقطعه . ثم أقعد مصباحه . وجلس إلى مكتبه . وأطلق لخياله العنان . وشرع يعمل .

وظل يعمل في حماسة وجنون ، حتى غافله الفجر وهو يكتب أبدح أغنية من « المحظية » ، باكورة أعماله وأولى الأوبرات العظيمة التي خلدها !

ولما مثلت « المحظية » لأول مرة . ودعى دونيتزيتى إلى المسرح لتقبل
 تحيات الجماهير ، لمح فرجينيا فى مقصورتها يكاد يغشى عليها من فرط
 الكمد واللوعة ، فلم يحفل بها ولم يلتفت إليها . وشعر وهو يستقبل المجد ،
 أنه قد ثأر منها ، وتخلص من حبها إلى الأبد واستراح ! . . .

الشاعر والشيطان

« من حياة الشاعر المجري فردريك رالف »

هذه المأساة وقعت للشاعر المجري فردريك رالف . وهذا الشاعر المنكود الحظ لم يبدع غير ديوان واحد . وقد أشار إلى مأساته المؤرخ الفرنسى هنرى مارتان فى كتاب له عن تاريخ الأدب فى بلاد المجر .

* * *

دق ناقوس الكنيسة فى القرية الخيرية النائية . فجثا الفلاحون على الأرض . وتمتموا فى خشوع صلاة الغروب ، وقفلوا راجعين إلى بيوتهم والشمس تضمحل شيئاً فشيئاً ويختفى قرصها الملهب وراء الأفق البعيد . وكانت إميليا تبسم للشباب الجميل روبرت وترمقه بنظرات دل ناعسة ملؤها الحب والافتتان والإعجاب .

والحق أن إميليا كانت قد أحبت الفلاح المديد القامة المفتول العضل روبرت . وكانت تلتقى به فى الحقول كل صباح فتحصد الغلال معه وتقضى سحابة النهار فى صحبته وتعود إلى البيت فى المساء وهو متأبط ذراعها يرمق الفلاحين بالنظر الشرر ويباهى بالفتاة الرائعة الجمال التى أصبحت فى قبضته .

وكان روبرت شاباً معتداً بنفسه ، فخوراً بقوته . غليظ الطبع . وحشى الخلق ، تهالك عليه العذارى معجبات به ، وكل واحدة منهن تود لو استطاعت كبح جماحه والتغلب عليه والاستئثار به . وكانت إميليا فتاة مأكرة غزلة لعبوا ، تعرف كيف تأسر فى ثقة ، وتجذب فى سكينه ، وتفتن فى صمت ، وتستميل فى إغراء هادئ مطمئن

عميق لا يكشف سرها ولا يمحيط اللثام أبداً عن حقيقة شخصيتها .

كانت لغزاً أنثوياً حياً ممثلاً في قامة ممشوقة . وشعر أسود نادر . وعينين واسعتين متقدتين ، ونظرات ناعسة وحادة تقترن فيها العذوبة والرقّة بالإباء والغصسة والشموخ . فلما أولع بها روبرت . وآثرها على أترابها . زاده حباً لها واستمساكاً بها أن فلاحاً من أهل القرية يدعى . فردريك رالف « كان قد بدأ يحوم حولها . ويتطلع إلى منافسته فيها .

وكان روبرت من أولئك القرويين الفقراء الجوالين الذين يعرضون أنفسهم على الناس ولو بالقوة . ولا يترددون في استخدام القوة لعرض الإتاوات أيضاً على الفلاحين . والحياة في القرى عالة على أهلها . فما إن أحس رغبة فردريك في التقرب إلى إميليا حتى تعلق بها . وضرب نطاقاً من الغيرة المروعة حولها . واندفع يعمل أو يسطو على عمل الغير وينفق عليها . فاغبتبت الفتاة ورأت في هذه المظاهر أبلغ دليل على شدة حب روبرت لها

وكان فردريك يرقب مراحل هذا الغرام ولا ينبس بكلمة . . وكان يحب إميليا حباً صامتاً عميقاً مبرحاً . كان يرتجف إذ يراها . ويهتج قلبه لمقدمها ، ويود لو استطاع التضحية بحياته في سبيلها . ولكنه كان خجولاً عيباً لا يحسن الكلام . تجيش العواطف في صدره فلا ينطلق بها لسانه بل ترسلها مخيلته المتوقدة في قصائد شعرية بديعة . يتلوها على إميليا فتسخر من معانيها سخرية باردة قاسية لاذعة . وكان فردريك شاعراً بالفطرة . عبقرياً بالسليقة ، تزود في مدارس القرية ببعض المعارف العامة ثم تقف نفسه بالمطالعة . وعكف على قرض الشعر . مستهبطاً وحيه من جمال إميليا . ممعناً في حبها والإخلاص لها . مستعذباً صدها ودلاها . كلفاً بالألم العميق الذي يحدثه في نفسه غموض شخصيتها الغائن . وكانت إميليا تعلم حق العلم أن حبه لها أشد وأعنف وأرسخ من حب روبرت . ولكنه

كان ضعيفاً وضيئاً . وكان روبرت قوياً وقاسياً . وكانت إميليا امرأة . تولع بالقوة . وتقدر مظاهرها . وتنشد في الزواج حماية نفسها . والزهو على أثوابها . وسحق بنات القرية جميعاً . وهكذا رأت في الطيبة دليل الضعف وفي الشر عنوان القوة فأهملت فردريك وتشبثت بغريمه ولم تعد تفكر إلا في الطريقة التي تحمل بها روبرت على الإذعان لها والتزوج بها . وخيل لإميليا أن خير طريقة هي الإقبال على فردريك والاهتمام به والتلطف معه فانصرفت بعض الشيء عن روبرت وولحت لفردريك بالحلب . أضرمت في صدر الشاعر نار الأمل . ألهبت في ذهنه شعلة النصر . أوقدت في تصوره خيال النعيم . فذهل وانتشى وآمن بالمستقبل . بيد أن إميليا سرعان ما تبدلت وتحولت . عندما أبصرت روبرت وقد ثارت كبرياؤه وغيرته . يتقدم إليها فجأة ويعرض عليها الزواج . عندئذ أسرع إميليا والفرح يكاد يخنقها ونادت أمها الأرملة جمعت شيوخ القرية ثم طالبت روبرت بأن يعاها على الزواج أمامهم . فنهض الشاب وتناول الإنجيل من يد أكبرهم . وأقسم أن يعقد على الفتاة في الموسم القادم وأن يدعو جميع أهل القرية إلى حفلة العرس . .

* * *

هذه الصدمة الأولى مزقت فؤاد الشاعر المسكين ولكنها هزت كوامن عبقريته من الأعماق فأبدع قصيدة رائعة كانت بمثابة أول اندفاقات الماء من ينبوع طاهر بكر . وهذا مطلعها :

« امتلأ رأسك بالوساوس ، وطوح بك الدوار ومادت بك الأرض .
مهما حاولت فلن تعلم من هي ! . . »

* * *

عينها خبيثة ، وابتسامتها ناعمة ، وضحكها فاترة كأنها تومض في سر

مستغلق أو في بصيص من النور لا يلبث أن يطغى عليه ظلام .
 مهما حاولت فلن تعرف من هي ! . .

* * *

وسكنت نفس الشاعر فترة ووجد في شعره بعض العزاء .
 أما إميليا فقد اطمأنت إلى المستقبل . وعللت النفس بالآمال الكبار .
 وأعرضت كل الإعراض عن فردريك واستسلمت لغرامها وأحلامها .
 وزهاها النصر فلم تستطع رؤية الحقيقة . وختم الهوى على بصرها
 فلم تستطع الهبوط إلى قرارة نفس من تحب . والحق أن روبرت كان قد
 خضع لكبريائه لا لحبه ، وكان قد لوح بالزواج لا ليرضى حبيبته بل
 ليتحن خصمه ، وكان وهو الرجل العاثر المستهتر الحر قد قيد نفسه بامرأة
 لا يسعدها ولا لير باليمين التي أقسمها لها ليثأر من غريمه . ويذله
 ويرى إلى أي حد يمكن أن يذهب به القنوط والفشل . ولكن فردريك
 كان أنبل من أن يعترض إرادة إميليا . كان يحبها ويود أن تحبه من تلقاء
 نفسها . فلما آثرت روبرت عليه : تعفف عنها ، وتجنب رؤيتها .
 واحترم نفسه ، ولاذ بكرامته ، وشرع يبعث عن عمل في قرية مجاورة .
 عندئذ خيل إلى روبرت أن الجو قد خلا له ، وأن خصمه قد ألقى بسلاحه .
 فطوحت برأسه نشوة الظفر ، وركبه الغرور ، وعصفت به غرائزه الدنيا .
 وتكشف حبه لإميليا عن رغبة وضيفة في امتلاكها والعبث بها واتخاذها
 خلية له .

والواقع أنه على الرغم من شعوره العميق بقوته ، كان يوجس من
 فردريك ويحسب له أكبر حساب . فلما أمن شره : تحول إلى الفتاة
 وكرروعه لها بالزواج في موسم الحصاد المقبل . ووافق يمويه عليها صدق
 العاطفة ، وبطالها بإثبات حبا وتوكيده في هبة توثق بينهما وتؤلف بين
 قلوبهما وتسمو بغرامهما فوق ما اصطلاح عليه الناس من شرائع وقوانين .

وكان عذب الصوت . بليغ العبارة ، مشبوب العاطفة . ظاهر العذاب ، فأشفقت عليه إميليا . ووثقت فيه ، وعز عليها أن تكون سبب شقائه فاستسلمت له .

وزين لها الحب وجه الدنيا . فازدهر بدنها ، وتطلق محياها . وانسكب عليها فيض من الأنوثة الساحرة يستهوى الأبواب ويأخذ بمجامع القلوب . وإذ ذاك عاد فردريك إلى القرية . ورآها . فاستشعر الحقيقة : ونفذت الحسرة إلى قلبه كقطعنة سكين .

أدرك بغريزته أن إميليا أصبحت لروبرت . وأن الشاب قد خدعها وغرر بها . فنارت ثائرة الشاعر . وخطر له أن يذهب إلى الفتاة ويكاشفها بمخاوفه . وينبهها إلى الخطر المحدق بها . ولكن السعادة التي كانت ماثلة في ابتسامتها وفي عينيها . وفي كل لحظة من لحات وجهها المشرق المعتز ، زادت في حسرته عليها . وفي إحساسه بالضعة والخوان . فحجل من نفسه ، وكبر عليه أن تذله امرأة فيسعى لخلاصها . فما كان منه إلا أن غض الطرف عنها . وانتظر ما عسى أن يحدث في الموسم القادم عندما تأزف الساعة ويطالب شيوخ القرية روبرت بأن يبر بقسمه ويقترن بعروس القرية إميليا . .

وكانت فترة الانتظار هذه قاسية على الشاعر قسوة الموت المرتقب المحتوم . أحس أنه قد يموت لو تخلى له روبرت عن إميليا وهي ملوثة . وأحس أنه قد يموت أيضاً لو استمع روبرت لصوت ضميره وكفر عن ذنبه واقترن بإميليا .

هذه الحرقلة المزدوجة ألهمت خيال الشاعر ، وضاعفت سخطه وعذابه . فكتب القصيدة التالية التي انطلقت من أعماق نفسه كما ينطلق الحمم من جوف بركان .

آه منك يا امرأة . كنت الوردة والثمرة والنور . كنت وردة
للروح . وثمرة للجسد . ونوراً للعقل . كنت الجمال وكنت الكمال .
فكيف خدعتني يا امرأة وغدرت في ، وكيف استحال قلبك في مثل
لمح الظرف . من هيكल للحب إلى مرعى للديدان !

الغدر في ضبعك . واللؤم في نفسك . والخيانة في دمك ! . . . بعداً
لك وسحقاً . إني أكرهك بقدر ما أحبك . كلما تأملت الوردة المنفتحة
تمثلت فلك الساخر حيث يضحك في رياء دم شرفك المطعون . وكلما
تأملت الثمرة الناضجة تمثلت صدرك الفاجر حيث يمرح في دهاء سر قلبك
المدفون . وكلما تأملت النجمة الساطعة تمثلت بصرك الزائف حيث يلمع
في هدوء خبث عقلك الملعون . أنت الشوكة لا الوردة . والدودة لا الثمرة
والسحابة لا النجمة . والشقوة لا النعم .

لقد عرفتك . ومن عرف المرأة معرفتي بها . آثر حرقة الزهد على وهم
التمتع . ولوعة الوحدة على فرح الحياة . وكبرياء النفس على ذل الحب .
حتى ولو كان في الزهد والوحدة والكبرياء فناء الجسم وموت القلب وعذاب
السعير ! . .

وظنك فردريك ينظم الشعر وينتظر . . وانتظر أياماً تبعثها أيام .
وهو يخفق همه في صدره . ويروح عن نفسه تارة بالعمل وأخرى بالقصيد .
وظل صابراً متحملاً يكظم غيظه ويتجاوز ويغفر . حتى دنا الموعد
المنتظر ، وهامس الكل به . وأرسل الشيوخ في طلب روبرت . وتأهبوا
لعقد اجتماعهم في السهل الكبير تحت شجرة السرو الباسقة التي أقسم
روبرت في ظلها الوارف يمينه المغلظة .

وكان فردريك . قبيل موعد الاجتماع جالساً في داره الصغيرة ، يجدل حبلاً من القنب ويغني أنشودة حزينة رقيقة يسرى بها عن نفسه .
وإذ ذاك طرق مسدعه وقع أقدام خفيفة ، فأجفل ونهض . وما كاد يتقدم صوب الباب حتى أبصره يفتح في رفق وتدخل منه إميليا .
وكانت الفتاة شاحبة اللون . متفرجة الجفنين . مرسلّة الشعر . يلفها وشاح أسود كبير . تبدو من خلاله أعضائها الرقيقة وقد تولتها رعدة كرعدة محموم .

وجمد الشاب وظل واقفاً يحدق إليها . فتقدمت إميليا . وطرحت عنها وشاحها وتهاوت بغتة على وسادة ملقاة على الأرض .
وقبل أن يوجه إليها كلمة . أشارت إليه بالجلوس فجلس . فابتسمت له ابتسامة قليلة . ثم لمعت عيناها فجأة وقالت : إن روبرت خدعني ! .
أخلف وعده : وأنى أن يتزوجني . فخيره شيوخ القرية بين القدية أو الموت . بين أن يدفع لى ثلاثين قطعة من الذهب . وبين أن يستهدف موت عاجل يصيبه من شباب القرية فجأة ومن حيث لا يدري ! . .
وكان قد أعد المبلغ فدفعه وانصرف ! . . وهذا هو ! . . هذه هي النقود ! .
هذا هو الذهب . ثمن شرفي : وكل ما أصبحت أملك لمستقبلي ومستقبل ولدي ! .

فصرخ فردريك : أنت إذن ؟ . . .
فغمغمت : نعم . إن ابن روبرت يتحرك الآن في أحشائي ! . .
واندلعت عيناها ، وأمسكت بكتفي الشاب . وجعلت تهزه هزاً عنيفاً وتصيح : ما جدواي من المال ؟ . . وهل هذا التزر اليسير من الذهب يمكن أن يعوضني عن شرفي . ويكفل لى القدرة بطول الحياة على تربية ولدي ؟ . . كلا . . سيتبغى العار أني ذهبت . وسيكون ابني العقبة الكؤود في سبيل إنقاذ سمعتي . وهو ماضى . وتجديد حياتي ! . . إن

الجريمة هائلة : ويجب أن تعاقب ! . . يجب أن يكون العقاب يا فردريك على قدر الجريمة ! . .

فنظر إليها الشاب وهتف :

— ماذا تعنين ؟ . . تكلمي . .

فصوبت إليه جميع أضواء عينيها كأنها تصب في روحه خلاصة عزمها ، وصفوة أملها ، وعصارة حب غامر يائس مستصرخ عميق . وقالت : أنت وحدك ! . في وسعك أنت وحدك أن تنقذني لأنك الرجل الوحيد الذي أحييني ! . . فقطب فردريك حاجبيه . وغمغم في هدوء : وإذا تأرت لشرفتي ؟ . . إذا أنقذتك وأنقذت ولدك وتبنيته ؟ . . .

فصاحت : أتبعك حيث شئت ! . . أكون لك مدى الحياة ! . فقال وقد عصفت به نشوة قوة طارئة لم يعهدها في نفسه أبداً : اقسى . . اقسى بالجنين البريء الذي يتحرك في أحشائك ! . .

فصرخت من أعماق قلبها : أقسم لك !

فخشى أن يبكى من فرط الفرح . وفتح ذراعيه ، فارتمت إميليا بين أحضانه ووهبته كل وجهها . فتناول الوجه الحميل بين يديه . وقبل الفم البديع وهو يرتجف .

~ * ~

ووضعت إميليا طفلها . ولبث فردريك يتحين الفرص للاقتصاص من غريمه . وفي ذات ليلة كمن له خلف صخرة واقعة في مؤخرة السهل الكبير . وكان الوغد قد اعتاد المرور بتلك الناحية ، فلما لمح فردريك ورآه مقبلاً ، برز إليه وقطع عليه الطريق وقال : لقد تخليت عن إميليا وتخليت عن ولدك . . فاصغ إلى جيداً . . كلانا يحب تلك المرأة . . ومع ذلك فأنا أمنحك إياها على شرط أن تتزوجها ! . .

فصاح روبرت مقهقهاً : لقد دفعت الثمن وانتهيت . . ولست من

الغباءة بحيث أتزوج امرأة ربما كانت قد خدعتني مع آخرين ولاسيما معك أنت ! . . .

فامتقع وجه فردريك ، واستل خنجره وصرخ : احذر ! . . .
فانتضى روبرت خنجره أيضاً وانقض على غريمه ، فانحرف فردريك
وظعن روبرت في ذراعه فجأراً هذا من فرط الألم . ولكنه راوغ خصمه
وتمكن منه وأصابه في جنبه الأيمن . فلم ييأس فردريك وتراجع متظاهراً
بالسقوط ثم نهض فجأة واستجمع قواه . وفي مهارة وخفة . غافل روبرت .
وأغمد خنجره في صدره حتى مقبضه .

واستفاق فردريك . وتلفت حوله وإذا به يبصر روبرت جثة هامدة
يتفجر منها الدم . فارتعد وملاً الذعر قلبه . ولكنه انحنى مسرعاً وانتزع
الخنجر . ثم التقط قبعته . وانطلق يعدو . ميمماً وجهه شطر إميليا . .

وكان الفجر قد لاح وبدأ ضوءه البنفسجي يتفرق على الحقول ،
فخشى فردريك أن يبصره أحد ، فتحول وسلك طريقاً قفراً محاذياً للترعة
القرية ، ومؤدياً إلى منزل إميليا .

ولكنه ما كاد يقطع الطريق القفر . حتى تراجع مذهولاً ووقف .
تراجع لحظة ثم انبطح على الأرض . واحتجب خلف شجيرة . وأرهف
النظر والسمع وهو يرتجف . .

أبصر على حافة الترعة ، إميليا . إميليا نفسها ، تصرخ وتبكي . وحولها
رھط من القرويات ينتحبن ويولن . وبين ذراعيها طفلها . مخني
الرأس ، متساقط الأعضاء . يقطر الماء منه . ويبدو عن بعد في ضوء
الفجر الشاحب شبه جثة متداعية هامدة .

وارتعدت فرائص الشاب وأنعم النظر أيضاً ، فألقى إميليا تلف الطفل
الميت بوشاحها ، وتوسل إلى القرويات أن ينصرفن عنها . وأن يدعنها

لشأنها . تذهب إلى بيتها بنجثة ابنها . وترقده على فراشه . وتظل في خلوة بالقرب منه . تتلو عليه بمفردها ، صلاة الوداع ثلاث ساعات كاملة كمادة القرويين .

وكانت إميليّا تتكلم وفردريك ينظر إليها . . . وكانت تبكي وفردريك يتفرس فيها . . .

لم يلمح على وجهها أنها صادقة . . . لم يشعر أنها أم مطعونة ثكلى . . . خيل إليه أنها تصطنع الألم واللوعة . . . أنها تكذب ! . . . أنها تمثل ! . . . أن دموعها وصيحاتها تنبعث من عينيّن باردتين متنبهتين . ومن صدر جامد صلب لا تم حرارته الفاترة على أنه قد انخلع . . . فثبت فيها النظر وهي تمشي . فهالته مشيتها الوثيدة . وهالته لفتاتها القلقة . فظل يتبعها النظر الواجم اللذاهن حتى تفرقت من حوفا النسوة . ودخلت هي بيتها . وعندئذ ضوى رأسه على صدره . وزحف على الأرض . ثم تلفت بئمة ويسرة . فلما لم يبصر أحداً . نهض لفوره . ودخل بيت إميليّا . وأحكم خلفه إغلاق الباب .

وكانت جثة الطفل مسجاة على السرير وبجوارها شمعة موقدة . وإميليّا راكعة على الأرض تهلى في هدوء غريب . فدنا منها فردريك وحقق إليه طويلاً ولم يتكلم . . .

وبعد لحظة خافها الشاب دهراً . تصدعت إليه وقالت وهي تنهض . . . لم أذق الليلة طعم النوم ! . . . تبعتك ! . . . اقتفيت أثرك ! . . . رأيتك وأنت تقا تل روبرت ثم رأيتك وأنت تطعمه ! . . .

فقال فردريك وهو يرتعش : لقد ثارت لك منه ولكن الله عاقبنا في شخص هذا الطفل البريء ! . . . ولكن كيف . . . كيف مات ؟ . . . كيف يمكن أن يكون قد سقط منك في الماء وأنت أمه وواجبك الأول هو الحرص عليه ؟ . . .

وحدق إليها أيضاً . فأحسها تختلج . فاستهول ظنه القطيع . وأمسك بها من كتفها . وطلق يهزها هزاً عنيفاً ويردد : كيف مات الطفل ؟ . كيف مات ؟ . . . تكلمي . . . فرفعت إليه بصرها الزائغ . وقالت في هدوء مروع : أنا التي أغرقته في الماء ! . . .

فجحطت عينا الشاب وجمد . . . خبل إليه أن قد اثبتت من كيان إميليا امرأة لم يرها أبداً : لم يعرفها قط . لم يتصور إمكان وجودها لحظة . امرأة هي أقطع من وحش وأهول من شيطان . فصاح بها وهو يرعد : أنت التي قتلت ولدك ؟ ! . . . فأجابته وهي مشرّبة العنق إليه . تتأمله في وقاحة محترقة . وتتحداه غير حافلة . وقد تكشف فتجأة ونزعت عن وجهها القناع : وماذا كنت تريد أن أصنع بالطفل ؟ . . . أكان يروق لك أن أجره خلقي . وأدلل به على عاري . وأجعل منه طائعة مختارة عقبة كؤودا في سبيل تجديد حياتي ؟ . . . إني أريد أن أعيش . . . أن أتمتع . . . أن أحمو هذا الماضي الذي يلاحقني وأن أعود امرأة طليقة من كل أسر . حرة من كل قيد . في وسعها أن تهب الحب والسعادة لرجل دون أن ترهقه بابن رجل آخر . ودون أن تعرض ولدها لحقد وكرهية الغريب ! . . من . . منذ الذي يرضى التزوج بي وأنا أحمل هذه المعرة الحية بين ذراعي ؟ ! ففغر فردريك فاه كأبله وتمتم : ولكنك كنت قد أقسمت أن تكوني لي : وكنت تعلمين حق العلم أنني أحبك وأني متأهب لأن أصبح زوجك ووالد الطفل ! فلماذا . لماذا قتلته ؟ ! . . .

فأغمضت إميليا عينيها نصف إغماضة ثم قالت في هدوء عميق : لأنني لا أحبك ! . . .

فذهل الشاب وصعق ثم صرخ فيها وقلبه يكاد يتمزق : إذن لماذا دفعتني إلى قتل روبرت ، وفيم كانت جريمتي وكيف أقسمت تلك اليمين المقدسة بأن تكوني لي ؟ . . .

فأجابته وهي سادرة في هدوئها لا تطرف لها عين : كان يجب أن انتقم ! . . . كان يجب أن يموت الرجل الذى لوثنى ! . . . والحق أنى حاولت أن أحبك ! . . . حاولت أن أتصور أنى قد أصبح فى يوم من الأيام زوجتك ! . . . ولكنى لم أستطع ! . . . لم أستطع ! . . . فعزت على حياتى ، وعز على شبابى ، ورأيت أن طفلى سيكون حجر عثرة فى سبيلى . فاستجمعت قوتى وتخلصت منه ! . . .

فأرسل فرديريك صيحة هادرة وهتف : ومنى أنا أيضاً ! . . . فصاحت به وهي تلقى إليه بالصرّة المطوية على قطع الذهب التى كانت ثمن شرفها : أنا لا أريد تضحية حياتك ! . . . إليك هذا المال ! . . . إنه لك ! . . . خذه وفر ! . . . لن يطمع حرس الحدود فى أكثر من بعض قطع منه ليسهاوا لك سبيل الفرار ! . . . أنت انتقمتى وأنا كافأتك وأنقذت حياتك . لقد أصبحنا متساويين ! . . .

فساد فرديريك بصره إليها وقال فى صوت غائر أجش . حاد المخارج قاطع الثبرات : أنا لا أستخدم ولا أشتري بامال ! . . . وما دمت قد ضحيت بولئك فدعيه هنا ! . . . سيدفنه القرويون ! . . . أما أنت فيجب . . . يجب أن تتبعينى ! . . . فرمقته بنظرة شذراء وقالت : لن أتبع إلا من أحب ! . . . فصرخ : لا تضيعى الوقت ! . . . ستستيقظ القرية عما قريب ! . . . أمامنا بضع لحظات فقط نلجأ فيها إلى المذود المهجور الواقع خلف السهل الكبير حتى يحن الليل فنلوذ بالفرار ! . . . فردت وهي جامدة :

لن أتبعك ! . . . لن أتبعك مهما حاولت ! . . . والتمعت عيناها وأردفت : وإذا مستثنى بسوء . فسأوقظ القرية وسأصيح بالقرويين جميعاً إنك أنت . . . أنت قاتل روبرت ! . . . وثبتت بخفة الفهد أو النمر ، وهمت بأن تغادر الغرفة مهددة بأن تقرن

القول بالعمل . فغشى الدم عيني فردريك ، ولم يعد يرى إلا سواداً . فانقض عليها وجذبها إليه . فتملصت منه واختطف آنية وضربته بها . فجن جنونه وطوقها بذراعيه . وألقى بها عند سرير الطفل وهو يصيح : كلنا . . كلنا قد تعذب بسببك يا فاجرة ! . . كلنا كان ضحيتك يا غادرة ! . . أنا وروبرت والطفل البريء ! . . ولكني سأتم القصاص العادل الذي كان مقدراً على أن أبدأه ، وسأثأر منك لنا جميعاً ! . . فأنت لست امرأة ولست أمّاً ولست إنساناً ! . . أنت هو الشيطان ! . . وقبل أن تتنبه أو تتوسل أو تستغيث استل خنجره الذي كان قد طعن به روبرت ، وأغمده في صدرها . فرفت أهدابها وهي تحديق إليه ، واختلجت فجأة ثم سكنت . سكنت سكون الموت والعدم . ولما أبصرها جثة غريبة دميمة شواء ، ألى أن ينحني عليها ، وألى أن يلمسها ، وألى أن ينظر إليها . خشية أن يقبلها . فتحول من فورة صوب الباب ، وفتححه ، واندفع يعدو إلى مخفر القسرية حيث سلم نفسه للبوليس .

وحكم على الشاعر القروي فردريك رالف بالسجن خمس عشرة سنة . وكانت المأساة التي اجتازها قد أضمرت فيه شعلة نبوغه ، فعكف في سجنه على وضع ديوانه الأول والأخير « الشاعر والشيطان » وهو يذكر إميليا ، ويجاهد ما استطاع ليتخذ من الفن أداة لبعثها والتخلص في الوقت نفسه منها .

بيد أن الشاعر النابغ لم يكد يتم وضع ديوانه ، ويستوفي مدة عقوبته ، ويوشك أن يخرج إلى الحياة ، حتى انهارت قواه بغتة ، وأصابته نوبة قلبية صرعته ، فمات في السجن قبل أن يرى عالم النور وقبل أن يعرف نعمة الحرية !

عند ما يتجهز الإنسان

من حياة الأديب الألماني موريس هارتمان .

" يعتبر موريس هارتمان من كبار أدباء ألمانيا في القرن التاسع عشر .
وهذه القصة تصور لنا حادثاً وقع له في مقتبل شبابه . فبدل نفسيته .
وأضفى على أعماله الفنية حلة إنسانية رائعة .

كانت حياة هذا الأديب الفنان موزعة بين عبادة الفكر وعبادة
القوة . فالفكر كان يمثل في نظره صورة العظمة المعنوية التي يجب أن
ينشدها الإنسان . والقوة تبدو له الغاية النهائية لمجهود الفرد والمجموع على
السواء . .

وكان - وقد استبدت به هذه الفلسفة - لا يحترم غير المفكرين
ولا يقيم وزناً لغير الأقوياء . ولا يكافح ويناضل إلا لتحقيق في حياته
سيادة الفكر على العاطفة . وسيادة القوة على مختلف مظاهر الضعف
الكامنة في أطواء الغريزة البشرية وفي أعماق القلب الإنساني .
والحق أن موريس كان أرستقراطياً بالعنصر والطبع والفطرة . وهذه
الأرستقراطية المتعصبة التي انحدرت إليه من أسرته . وتخالفت فيه من
مؤثرات بيئته . وتمكنت منه عندما اتسع أفق ثقافته . ولدت في نفسه
على مر الأيام والسنين ضرباً من الكبرياء المشوبة بالقسوة والأنانية
والادعاء والغرور .

وكان إذ ذاك في نحو الثلاثين من عمره . لم يعرف الحب ولم يحقق
فؤاده لامرأة .

وفى ذات صباح . وبينما هو جالس على مقعد قصى فى حديقة عامة يقرأ فى كتاب . أقبلت عليه اتفاقاً . وجلست بجواره . فتاة فى مقتبل العمر باهرة الجمال .

وكانت هذه الفتاة سماوية العينين . ذهبية الشعر . ذات وجه أبيض ناصع . وجبهة عالية مشرقة . وسمات لطيفة دقيقة فيها طهر وعبث ومرح كسمات الأطفال . راعه منها صفاؤها . وسحر البراءة والسذاجة المنسكب عليها . فتشجع لأول مرة فى حياته وخاطب أنثى لا عهد له بها . وكان بسيطاً فى مظهره . بسيطاً فى حديثه . متخففاً من ضروب الخجالة والملاطفة والإطراء . فأخذت الفتاة بنصائره . واطمأنت إليه وبادلتة الحديث .

وكانت تدعى « برتا » وكانت يتيمة الأبوين . كفلها عم فقير رديماً من الزمن ثم ضاق ذرعاً بها . فهجرت بيته . واشتغلت فى مصنع . ولم يكدموريس يعلم أنها يتيمة حتى زداد هتماً بها . وميلاً إليها . واثتناساً بصحبتها .

ولم يشعر فى مبدأ الأمر أنها دونه مكانة وثقافة . لم يفكر فى نفسه قادر ما فكر فيها . لم يحببها كأرستقراطى أنافى . بل أحبها بروح عاشق وقلب إنسان .

وأحبته برتا الوضيعة الجاهلة المسكينة وهى تترجف . أحبته حباً خائفاً قلقاً مسهولاً . حباً خاشعاً عابداً مقدساً . حباً يختلط فيه الولاء بالحنذر . والحنان بالطاعة . والإعجاب بالذعر .

وكانت برتا تحس فى أعماق نفسها أنها حقيرة . وأنها ذليلة ووضيعة . فتسرف فى الحنان . وتسرف فى الخضوع . وتسرف فى الطاعة . وتحب موريس لا كما تحب امرأة رجلاً . بل كما يحب المؤمن الصادق صفحة السماء يمثل فيها إيمانه العميق بفكرة الخير ومعنى الرحمة وروح الله . .

وكان امتثالها الحادىء الحالم يدهش موريس ويذهله . وطاعها الصامته العمياء تجذبه وتبهره ، وإحساسها بالضآلة والصغار يفتنه ويأسره . ويضاعف فى نفسه المتكبرة إحساس التفوق والعظمة . كأنما هو فى الواقع رب من الأرباب يتلقى فى جمود تساييح عبد من عباده المخلصين . وكان موريس لفرط كبريائه يريد أن يكون معبوداً . فلما عبده برتا ، استمسك بها . وحرص عليها . وتشبث بحبها . ورأى فى إعجابها الفردى العظيم رمزاً لذلك الإعجاب العام لذى كان يحاول أن يظفر به من جماهير القراء .

وتطور حبه إلى غيرة عنيفة . إلى غيرة مشبوبة . إلى غيرة طائشة جامحة سداها الكبرياء . ولحمها القسوة والأنانية .

ودفعته الغيرة إلى الرغبة فى امتلاك برتا . فتروجها . وأغدق عليها من صنوف النعيم ما لم تكن لتحلم به أبداً .

ولم يكذ يشعر أنها أصبحت له حتى انتقد حبه . واضطربت غيرته . والتهبت فى عقله الوسائس . وانتابته الريب .

خيل إليه أنها قد تنصرف عنه يوماً . وقد تجفود . وقد تخدعه . فأسرف فى حبها ، وبالغ فى الحرص عليها . وضرب حوزاً نطاقاً من الرقابة كبلها وأرهنها وسامها مر العذاب .

وكان لا يستطيع أن يتصور الحياة بدونها ، ولا أن يتخيل شريكاً له فى قلبها ، ولا أن يتمثل عاطفة من عواطفها أو فكرة من أفكارها . تنجيه إلى غيره . أو تجد متنفساً فى غير عالمه . .

وكانت برتا تتألم وهى صامته . يشفع لموريس فى نظرها صدق حبه . وعميق رغبته فى أن يجعلها سعيدة . ولو على طريقته .

بيد أنها مع ذلك تبرمت . تبرمت فى غير ما سخط أو تمرد . تبرمت فى لطف ، وتعلمت فى عطف . وشكت فى رقة وأدب . ولكن موريس

أهمها بالفتور فاستنكرت . فاتهمها بالحدود فتارت . فاشتد حبه . وعظمت مخاوفه . وأمعن في الأنانية . وأفرط في الغيرة . وأوغل في الاستبداد .

وفي تلك الفترة حملت ووضعت غلاماً ومنذ ذلك اليوم تبدل كل شيء في حياتها .

وجدت في طفلها متصرفاً فهمها وعزاء لقلبها ، وثمرة لصبرها واحتمالها . فأحبت الطفل حباً قوياً جارفاً . اعتقاداً منها أن هذا الحب سيهدئ من ثائرة زوجها ، ويخمد غيظه ويبدد هواجسه ويرده آخر الأمر زوجاً رشيداً وأباً رحيماً وإنساناً عاقلاً .

* * *

ولكن الكبرياء ذهبت بلب موريس فغشيته القسوة والأنانية ، فغار على زوجته من ولده . وغار على امرأته من قلدة كبده . لم يخالجه أى إحساس بالأبوة . واستبد به الغيظ والحنق فبات ينفر من طفله . ويكاد يختبل ويجن كلما تصور أنه قد خلق هذا الغريم بنفسه . وابتدعه من صلبه . وأوجده من خلاصة حبه . وصفوة جسمه . وعصارة دمه !

وذهلت برتا وارتاعت ولم تفهم . لم تفهم هذا الإحساس الشاذ العجيب . لم تفهم كيف يمكن أن يغار الوالد من ولده . فازدادت خوفاً . وازدادت رعباً ، وخشيت على الطفل البريء . وتوقعت من الزوج الأناني أن يحاول انتزاعه من بين أحضانها .

وبالفعل أراد موريس أن يقتلها . أراد أن يقتلها كأم . ويبعثها كامرأة .

أراد أن يفصل بينها وبين طفلها . فأقصاه عن حضنها وفراشها . وأفرد له في القصر غرفة خاصة . ووكل أمر تربيته إلى الخدم . وأصر

على أن تكون برتا سيدة جميلة رشيقة أليقة . لهم بزوجهما وحده . وتعبه
هو وحده . وتقهير أمومتها ما استطاعت .
غير أن برتا ما كادت تحرم من طفلها . من وحيدها . حتى ثار
نائرها وجن جنونها وانقلبت إلى وحش يصارع وحشاً . ويحاول أن يفلت
من برائن وحش .

صاقت ذراعاً بحياتها . فعزمت على الفرار بطفلها إلى الريف حيث
تعيش في كنف عم لها .

وملكتها الفكرة . واحتواها الأمل ، فقربت إليها خادمة مخدعها .
وأفضت إليها سرها . ونفحتها بمبلغ من المال ثم طلبت إليها أن تعاينها .
وفي ذات ليلة من ليالى الشتاء الحالكة الملبدة . وبينما موريس في
حجرة مكتبه يغط في نومه بعد أن قضى الليل ساهراً يعالج وضع كتاب
جديد . تسللت برتا في صحبة الخادمة إلى حجرة الطفل وحملت ابنها بين
ذراعيها . وخرجت من البيت على ألا تعود .

وإنها لتجتاز الدهليز الطويل المفضي إلى باب الحديقة الخلقى .
وإذا بها تتراجع وتجمد . وتبصر نفسها أمام زوجها وجهاً لوجه !

واضطربت الخادمة وامتنع وجهها . فأيقنت برتا أنها قد ساومت
رب البيت على سرها وخانتها . فعلى الدم في عروقها وتشبث بعزمها .
وأبت إلا أن تخرج . ولكن موريس انقض عليها . وانترع الطفل منها .
ثم جذبها في عنف إلى الداخل وهو يردد . ولأول مرة منذ عرفها رفع كفه
الغليظة وصفعها ! . .

صفعها أمام الخادمة . فحدقت إليه تحديقاً هائلاً وقد تاه فكرها
ثم ارتمت عليه كاللبوة المفترسة ، وانترعت منه طفلها . ومزقت من باب
الحديقة . وانطلقت تعدو على غير هدى .

وكان الضلام كثيفاً . والبرد شديداً . والعاصفة تتجمع في السماء .

فأهاب موريس بامرأته أن ترجع . فحشت خطاها غير آبهة فجد في أثرها .
وأوشك أن يدنو منها . ولكنها أسرع فاخترقت الحديقة . وانفذت إلى
الشارع الكبير . واستوقفت مركبة عابرة . وهمت بالصعود إليها .
وإذ ذاك . وفي مثل ومض الضرب . زارت الريح . ودوى الرعد .
وانفجرت العاصفة . وانهمر المطر . وانصب على الأم وطفلها كسيل من
رصاص . فاضطربت برتا وتراجعت ودب الذعر في قلب موريس . فلحق
بها وهو يصرخ : ارجعي رحمة بابتك ! .

ولما أبصرها تجاهد نفسها . وتغالب اضطرابها . وهم ثانية بالصعود
إلى المركبة عدا نحوها وأمسك بها . ثم جرهما إلى الحديقة جراً . ودفعها
إلى البيت دفعاً . وهي تختلج من الرعب وتتفصص من البرد . وطفلها يئن
ويتلوى . جاحظ العينين . أصفر الوجه . يقطر منه الماء . ويتخبط جسمه
الضئيل بين ذراعيها أشبه بكرة صغيرة يتقاذفها الموج .

وما إن دخلت ولمست الطفل . حتى شغرت بحراوة الحسى تسرى في
بدنه . فطاش صوابها . وتعلقت بزوجها . وصاحت به تطلب طبيباً .
فانخلع قلب موريس وطمأنها وهو يرتجف . ثم قبل الطفل ملهوفاً وأسرع
كالخنون يبحث عن طبيب .

وغاب الطفل عن وعيه . وعصفت به الحسى . فلما أقبل الطبيب
وفحصه . رفع رأسه مهوئاً . وحقق إلى الأب والأم مستنكراً . ثم قطب
حاجبيه .

وظل الطبيب في البيت ثلاثة أيام بهوفا يعالج الطفل جهده . ويحاول
ما استطاع أن يشفيه . ولكن الطبيعة الساخرة هزأت برجل العلم . فإساءت
حالة الطفل في اليوم الرابع . وانتزعه الموت فجأة أمام أنظار والديه ! .
ولم تكد برتا تبصر ابنها الوحيد جثة هامدة حتى استطار إليها .
فارتكت عليه . وأخذته بين ذراعيها وطفقت تصيح كعتموه وهي تدفع

بالحثة الهامدة إلى زوجها : أنت . أنت قتلت ولدى !
ونظر موريس إلى الطفل لحظة ثم تفطر قلبه وصرخ هو أيضاً .
صرخ من أعماق نفسه . صرخ من أعماق أبوته . صرخ من أعماق
يقظته ولوعته وندمه .

وفي تلك اللحظة . في تلك اللحظة فقط . تحطم جبروته وتبددت
أنانيته . وتوضت فلسفته ، وأدرك أمام جثة ابنه العزيز الوحيد أنه لم يكن
قط إنساناً . لأنه لم يضع القلب فوق العقل . والحب فوق الأنانية .
والرحمة فوق القوة .

وجاشت في صدره حسرته . فأنهار على نفسه وطفرت من عينيه
الدموع !

الربيع الفاجع

« وقعت للروائي المنسوى » لوجومس دى زيلاي « في مطلع شبابه مأساة حب عنيفة كادت أن تقضى على مستقبله وحياته . ولكنه استطاع أن يتغلب عليها وهو في أفجع مراحلها . بأن أسرع وسجلها في هذه القصة ممثلاً نفسه في شخصية بطلها هنريك . فكانت هذه القصة النابضة بالصدق والحياة هي التي لفتت إليه نظر النقاد والقراء . وجعلت منه بين عشية وضحاها أديباً فذا وروائياً نابغاً » .

نشأ هنريك في الريف يتيم الأم . لا تعرف نفسه الدعاب الرقيق . ولا الشفقة الحلوة ولا الحنان المعبود . فأصابه منذ حداثته نوع من السوء الحاملة ، والانطواء النفسى المشوب بالحجل والقلق والخوف . وكان في طيب القلب ساذج الفكر . خيالى النزعات . فأشفق على نفسه من حياة الريف المتشابهة المضجرة المغربية بالتأمل والحلم ، فسافر إلى بودابست عاصمة المجر . حيث التحق بكلية الحقوق وفاز بشهادة الدكتوراه .

وشاء القدر أن ينتزع منه آخر حب عائلى ثمين . فتوفى والده فجأة . فألقى الشاب نفسه في القرية من جديد . وحيداً شريداً . يملك الضياع الواسعة ، ويعيش في جو ساكن هادئ قائم يوشك أن يرتد به إلى حياة العزلة والكآبة والضجر التي كان يحياها من قبل . فلم يكتفِ وعهد بإدارة أملاكه إلى أحد القرويين من أصدقائه . وعاد إلى بودابست وقد عقد النية على البحث عن عمل في إحدى الوزارات .

ونزل في فندق فخم كبير . وما كاد يدخله حتى وقعت عيناه على جل وسيدة وفاته .

وكانت الفتاة رائعة الجمال ، ذات وجه خمري متقد ، فيه من
أمارات العزة والركة والبشاشة ما استرعى بصر الشاب ، وخلق له ، وتركه
ذاهلاً محيراً مفتوناً .

وطاف به الوجه الجميل واستحوذ عليه بالرغم منه . فاستفسر عن
العائلة . فعلم أن الوالد هو قبطان إحدى البواخر التجارية المتهورة ، وأن
الوالدة هي بنت وزير معروف ، وأن الأسرة تنتقل في المدن وتسكن الفنادق
بحكم وظيفة الأب .

وأوى الشاب الريني إلى حجرته وطفق يفكر في الفتاة . . . قال في
نفسه ما يقوله عادة كل قروي يصادف في المدن أول فتاة جميلة :
لم لا أتزوجها ؟ . . ألا تصلح لي ؟ . . ألا تكون هي المرأة المبتغاة ؟ . .
وخرج إلى المدينة . وأبصر الحسان المتأنقات العابرات ، فسخر من
سذاجته وأراد أن ينسى . . حاول أن يلهو ويمرح ولكن طيف الفتاة كان
يلاحقه ، ويتمثل له في وحدته . فكان يضحك في نفسه من نفسه ،
وكان كلما ضحك غشيه هم طارئ أقض مضجعه وعكر عليه صفو لياليه . .
وجعل يتحين الفرص لرؤية الفتاة . . أبصرها مرة جالسة في بهو
الفندق تستمع إلى الموسيقى . فحدقت فيه ولكنها لم تلق عليه بعد ذلك
نظرة . لم تلتفت إليه . لم تحس وجوده . فطفق يتساءل : هل أسأت
إليها في شيء ؟ . لم لا تقبلني زوجاً لها ؟ . . إني من أغنياء الريف
ولست بالفقير المعدم ! . .

وحمله الخيال على أجنحة الحلم فزائله ضجره ، وغادرته كآبته ، وبدأ
ينظر إلى الحياة بعين ناضرة ، كأن أمله قد استحوذ إلى حقيقة ، وكأن هذه
الحقيقة الساحرة قد خضعت لإرادته ، وأصبحت بالفعل والواقع ملكاً له . .

وتسلم هنريك منصبه في الوزارة بعد شهر واحد ، واتفق أن تعرف إلى موظف من إخوانه يدعى « موريس » . وكان هذا الموظف رقيق الحال فطلب إلى هنريك ذات يوم أن يعيره ثوبه الأسود ليذهب به إلى حفلة عيد ميلاد ابنة عمته . ولما علم موريس أين يسكن صديقه أظهر دهشته ، وصارحه بأن عمته تنزل في نفس الفندق الذي ينزل فيه هنريك ، وأن قرينها هو القبطان نفسه ، وأنها تدعى الكونتس سيسل : وأن الحفلة ستقام بمناسبة عيد ميلاد ابنتها الآنسة أديث . . .

واسترسل موريس فقال إن الآنسة ولوع بالرقص . فأسرع هنريك وقال إنه يحب الرقص ويحبده . فسأله موريس إذا كان يرغب في مرافقته إلى الحفلة . فاقتبل هنريك فرحاً وقبل ، ولم يسعه إلا أن يعانق صديقه عناقاً حاراً وهو يهذى ويضحك كالأطفال ، والصديق ينظر إليه نظرة الحضري الساخر إلى القروي الساذج البسيط الذي يعتبر نفسه قد ملك الدنيا لأنه على وشك أن يدخل المجتمع الرفيع لأول مرة .

وبهرته الأضواء والأزياء . وأخذته جلجلة الموسيقى : عندما دخل قاعة الرقص وراح بين المدعوين يتخبط كالغريق ويحبل بصره الشارد باحثاً عن أديث . . . وفجأة نبهه صديقه فاستفاق وتقدم . حيا القبطان في أدب ، وانحنى وقبل يد الكونتس . ثم التفت وصافح أديث فألناها وقد احمر وجهها ، تشخص إليه مذهولة . وتعجب له كيف استطاع بمثل هذه السرعة أن يتصل بهم . . . وكانت ترتدى ثوباً أبيض ناصعاً يبرز محاسن قامتها ويغرى بها الناظرين . وكانت تتحدث إلى رجل في نحو الخمسين من عمره . مفتول العضل ، وثيق التركيب ، مزهو بنفسه ، هادئ ورصين . . .

لم ينظر الرجل إلى هنريك . لم يعرفه أى اهتمام . ولكن هنريك تأمله

طويلاً واضطرب . لم يدر ماذا أصابه في تلك اللحظة . أحس فجأة بغور في قلبه ، وضيق في صدره . وكمد واحة ونفور فأسرع إلى صديقه مستفسراً ، فأنبأه مورييس أن الرجل هو الكونت اهرنبرج الشريف الثرى . وأنه متزوج . فسرى عن هنريك في الحال . وعادت الابتسامة المطمئنة الطليقة تفرح على شفثيه . . .

وبدأت الرقصة الثانية . فتقهقر هنريك وانكمش . فأقبلت عليه أدبث تسأله أن يراقص إحدى الفتيات . فصارحها بأنه قد كذب على صديقه . وأنه لم يرقص أبداً . وأنه إنما تظاهر بحب الرقص وإجادته ليتمكن من التعرف إلى أسرته . . .

وتفرست فيه الفتاة لحظة . ثم ابتسمت ابتسامة لاهية . ثم دنت منه بعتة . وجلست بجواره دون كلفة . وطلبت إليه أن يتحدثها عن سبب اهتمامه العظيم . . .

وشعر هنريك كأن دمه كله قد اندفق إلى قلبه . فلاذ بصراحته اللريفة . وفطرته السليمة . وبساطته المتأصلة . وطرح عنه عبئه الذي أنقض ظهره . وكاشف الفتاة بعواطفه وهو يرتجف . .

وكان صادقاً في كلامه . متوقد القرينة . مشبوب العبارة . متهافت النظرات والحركات والأنفاس . فظلت الفتاة تحدق إليه مستغربة . ثم ابتسمت نفس ابتسامتها اللاهية . ثم أقبلت عليه فجأة تعابثة وتضاحكه . فاطمأن إليها . وعرض عليها الزواج . وقلبه يشب في صدره . وفرحته الدافقة تكاد تخنقه .

وما أن علمت أنه مزارع غنى حتى عطف عليه . وقربته منها . وأبت أن تراقص الشبان . وانصرفت بجمعها إليه .

وأشرق وجهها بعتة وتهلل . وبعد أن كانت عابثة أصبحت جادة . فدهش هنريك لهذا التحول الفجائي ، وخاف وقلق . ولكنها سكنت روعه . وطيبت خاطره . ووعدته بأن تخرج منذ الغد في صحبته كي تمتحنه .

وتستوثق منه . وتتعرف إلى أخلاقه وطباعه . توطئة لمكاشفة والديها بأمره ، وإعلان خطبها إليه . .

وجن جنون هنريك ولم تعد تسعه الدنيا . فاض هذا الحب عليه كالسيل . وجرفه كالموج . وطواه كإعصار . فكان يخرج في صحبة الفتاة إلى المنتزهات العامة فخوراً بنفسه . معتزلاً برجولته . مباهياً بنصره . يرى الحياة في ضوء جديد . ويرى في كل ضوء معنى . وفي كل معنى طرفة وجدة ، وفي جميع الأضواء وجميع المعاني وجميع الصور والأشكال طيف أدب . وعيني أدب . وابتساماتها . وضحكاتها . ومختلف المفاخر والمباهج التي كانت تنبع من حبه لها كما تنبع الأحلام الرائعة من مخيلة طفل يهدده النوم ويسبح به في عالم مسحور . .

ولم يكن قد عرف الحب . فأصابه حبه الأول بلوثة مفتون . فكان يضج ويمرح . ويصيح ويصخب . ويموت ويبعث . وفق إرادة أدب . وتبعاً لزوات المرأة . وتقلبات الأثني التي كان يجهل عنها كل شيء . . وكان كلما طالها بمكاشفة أبويها ماطلت . وكلما عرض عليها أن يخطبها راوغت . فكان يتألم ، ولكنه كان يصبر . أسعد ما يكون بالألم ، وأقوى ما يكون على الصبر والجلد ومجاهدة الحظ ومحاولة إخضاع قلب الفتاة وتحدي سلطان القدر .

وفي ذات يوم جاءته أدب محزونة . وأنبأته أنها مدعوة لقضاء أسبوع عند أقارب لها في فينا . وأن ليس في مقدورها أن تعصى والديها . وأن ترفض القيام بمثل تلك المجاملات العائلية . ورحلت فجأة وتركته وحيداً . تركته رهن القلق والأسى . مسلوب الحول ، طائر اللب . لا يعيش إلا للدقيقة التي يتسلم فيها من موزع البريد خطاباً منها .

وكتبت إليه في مبدأ الأمر رسالة حارة . ثم كتبت إليه أخرى هادئة

ومتزنة وخامدة ، فاضطرب وقلق وانتظر ، ولكن الرسالة الثالثة لم تأت . .
أربعة أيام طوال بلا كلمة منها ! . . أربعة أعوام أو أجيال أوشك اليأس
أن يغيب في تضاعيفها كل أمل . . فثارت ثورة هنريك ولم يتردد .
وسافر إلى فيينا . .

واستفسر عن المنزل الذى تقم فيه أديث . وقصد إليه ، وظل يروح
ويغدو عند بابه ، وأنظاره المحمومة متجهة صوب النوافذ والشرفات .
وتشجع وهم بالدخول وإذا برهط من الشبان والأوانس يهبطون الدرج .
مرتدين ملابس الرياضة البيضاء : حاملين مضارب الكرة ، وفي مقدمتهم
أديث متأبطة ذراع رجل مفتول العضل ، وثيق التركيب . هادئ ورصين .
وتنحى هنريك ، وأنعم النظر فى الرجل ، وإذا به الكونت أهرنبرج
نفسه ! .

اقشعر بدن الشاب من هول الصدمة . أصابه شبه دوار . فأخفى وجهه
بكفيه ، وتراجع ، ثم أسرع محطم الأعصاب . مهدود القوى ، وركب
القطار ، وعاد من فوره إلى بودابست .

كان كالضائع . كان كالشريد . يسير فى الطرقات على غير هدى
لا يكاد يدخل حجرته حتى يرى طيف أديث ، وعيني أديث ، وابتهامات
أديث ، فيصرخ ويهذى ، ويروح فى غيبوبة طويلة ، يفيق بعدها
خاوى العقل من كل فكرة ، خلو القلب من كل إحساس وشعور .
وتقاذفته الوسواس والشكوك ، وبرحت به ، وأقضت مضجعه ، فظل
يكافحها تارة ويستسلم لها أخرى . حتى عادت أديث .
وما إن أخطرتة بعودتها حتى ذهب إليها وملء نفسه الرغبة المغيظة
المحنقة فى إماطة اللثام عن حقيقة سرها .

وحدق إليها وهو يرتجف . حدق إليها طويلا ، فلمح فى نظرتها
وابتهاماتها وصوتها شيناً غريباً ، لوناً جديداً يختلط فيه زهو الشباب بغطرسة

تمج سخرية عابثة لاذعة .

وتفرس فيها فأحس بعينيها تروغان منه . وتكلمت فكاد ينكر صوتها وأبغضها . كل شيء فيها تغير . لم تكن نفسها في حاجة إلى أكثر من أسبوع واحد كي تتحول فجأة فتبدل الروح والجسد معاً ! . . .

ودنا منها ، وسألها في هدوء : هل رأيت في فينا الكونت اهرنبرج ؟ . . . فأجابت وهي لا تعي ما تقول : إن الكونت طلق امرأته ، وأنها سمعت بذلك عفواً في حديث جرى بين والدتها وبين صديقة لها . . .

فتأملها لحظة ثم قال : ألم يكن الكونت في فينا ؟ . . .

فأجابت وهي تتطلع إليه متعجبة : كلا ! . . .

عندئذ أحس هنريك كأن ضربة آلة حادة قد هوت بغتة على رأسه ، فصاح بها وهو يردد : أنت كاذبة ! . . .

فقطبت حاجبيها وقالت في إباء : لا أسمع لك بإهانتى ! . . .

وأشارت بيدها نحو الباب . فامتقع وجه الفتى وترنح وكاد يسقط . ولكنه تمالك نفسه ، وحياها في أدب ، ثم دفع الباب في عنف وخرج لا يلوى على شيء .

وعيثاً كتب إليها يذكرها بالماضي ويهددها بالانتحار . لم تجبه على رسائله . لم تكترث لعذابه . خلفته فريسة الحيرة والقلق والشك والهوان . فتملكه بأس فظيع ، واستحوذ عليه ضجر ممض قاتل ، فكره نفسه وكره المدينة التي شهدت فجر حبه ، واعتزم العودة إلى الريف ، والتطهر في حضن الطبيعة مما علق به من ادران

• • •

وأبى القدر إلا أن يعذبه أيضاً ، ويسخر منه سخرية يقف العقل حياها نحيراً مغبولاً . . .

تعرف في قريته إلى امرأة ثانية . . . أرملة تدعى يولاند ، هادئة مترنة

عاقلة . توفى زوجها في إحدى مصحات القرية . فلاذت بالعزلة ، وأولعت بالصوم والصلاة والصمت .

راعتة منها فتنة هذونها . وجلال النقاء والظهر المنسكب عليها . أما هي فقد أثر فيها حزنه . وسحر اللوعة العميقة المنبعثة منه : فأحبته . . أحبته حباً قويا خالصاً بريئاً . كان أحوج ما يكون إليه في تلك الساعة العصية من حياته . كان يصبو إلى إنسان يفهمه ويعالجه ويشفيه . فاستراح إلى فتنة يولاند . إلى صراحتها النادرة . إلى إخلاصها الفطري ، إلى ذكائها الوقاد ، إلى حنوها الغامر الشبيه بحنو الأم . . والواقع أنها هي التي أحبته . أما هو فكان يعطف عليها فقط ، ويتزود من حنوها فقط . ويعيش في ضوءها الخافت خشية أن يفلت منه كل ضوء فيعيش في ظلمة كظلمة القبر ! . . .

على أنه لم يستطع أن يبصر جوهر نفسه . ومعالم طريقه في ذلك الضوء المضطرب الخافت . . .

كانت الفكرة الثابتة تحتل ذهنه وتعذبه . كان طيف أديث يتمثل أمامه ويؤرقه . كان حبه الأول ينوء عليه ويسحقه . فضاقت يولاند ذرعاً به . واستأذنت في الرحيل إلى بودابست بعد أن التمت إليه أن يزورها في بيتها ، وبعد أن أقسمت له أنها ستظل أمينة على حبه مخلصه له . لماذا ، لماذا يحب الرجل المرأة الشريرة ويعرض عن المرأة الطيبة الوفية المخلصة ؟ . . لماذا لم يسرع هنريك ويتزوج بيولاند ؟ . . لماذا لم يصادفها في مبدأ حياته ؟ . . لماذا لم يحبها كما يجب أن تحب وكما تستحق أن تحب ؟ . .

وعادت الأفكار السوداء تغزو عقله المتصدع ، وأضجرته حياة الريف ، فهفت نفسه إلى رؤية يولاند ، فودع القرية مرة أخرى ومضى إليها . . .

ووهبته حباً صادقاً عميقاً كاملاً أودعت فيه كل فضائل أنوثتها .
ولكنه مع ذلك لم يؤخذ ولم يفتن . كان يشفق عليها . كان لا يطيق أن
يراها مريضة أو يسمعها تشكو أو تتألم . كان يحبها كرمز للفضيلة والوفاء .
ولكنه لم يستطع أن يحبها أبداً كما كان يحب أدبث المتقلبة المتلونة
الغادرة . . .

وكانت أدبث ما تزال ملء سمعه وبصره وخياله . يراها في الصمت
والحركة . في الظلام والنور . في الفكر والتأمل . فيحاول أن يفر منها في
سحر يولاند . وفي صفاء يولاند . وفي فضيلة يولاند . فيرتد بالرغم منه
خائر النفس . مفقود الأمل . يرنو بعين الحسرة إلى طيف أدبث . وهو
يتلوى ويحار ويبكى .

وبلغ هنريك تلك المرحلة الهائلة التي يقطعها الناس وهم كالعرائس
الحشبية المعلقة بخيط رفيع يهزها القدر الحفي فتترنح ذات الخمين وذات
الشمال . بلغ تلك المرحلة فاختلطت عليه السبل ، ولم يعد يفرق بين الأعمال
التي تصار عنه وبين المكائد التي ينصبها له القضاء ممثلاً في طيف
أدبث . وفي حياتها المروعة . وفي ماضي غرامها المشثوم .

وفي ذات يوم . خرج هنريك إلى الزهرة بمفرده . وكان موزع النفس .
تائه الفكر . يذكر يولاند التي تحبه . ويذكر أدبث التي عبث به .
ويحاول جهده أن يغلب تأثير الأولى على الثانية فلا يستطيع .

وفجأة لاح له عن بعد هيكل امرأة متأبطة ذراع رجل . . لم يعرف
الرجل . أما المرأة فقد أيقن أنه عرفها . . هي ! . . لا شك إنها هي ! . .
يا للألم الممزق الذي اخترق فؤاده وأدماه ! . . إنها يولاند نفسها ! .
مشيتها الرخوة . حركتها الوثيدة . ظهرها المنبسط . قبعها الواسعة . ثوبها
الكحلى . . . هي بعينها . . أمكن هذا ؟ ! . .

انقبض صدره ، وغشى الدم عينيه ، وحث الخطى ليواجه صديقه

ويحبها . بيد أن رفيقها دفعها فجأة في منعطف طريق غاص بالسابلة
ثم اختفى بها في جوف عمارة شاهقة عظيمة ، وقف هنريك تجاهها محيراً
ذاهلاً مشدوهاً . .

وفي المساء ذهب هنريك إلى يولاند . وما إن وقع بصره عليها قابضة
في زاوية مخدعها ، هادئة هدوءاً عجيباً يشير الحنق والسخط والاستنكار .
حتى صاح بها : أين كنت صباح اليوم ؟ . .

فحملت فيه مبهوتة وأجابت : لم أغادر قط منزلي ! . .
فتمثل له عندئذ طيف أدبث ، وشعر بمثل ما شعره في المرة الأولى ،
ضربة آلة حادة هوت على رأسه . فراجع لحظة ليستجمع قواه ثم رفع
كفه ولطم يولاند لكمة هائلة وهو يصيح : أنت كاذبة ! . .

وخرج لا يلوى على شيء . خرج هائماً على وجهه . وبالرغم منه
قادته قدماه إلى نفس الطريق الذي كان قد سلكه في الصباح ، فجحطت
عيناه بغتة وتقهقر . . تقهقر إذ أبصر المرأة التي كان قد تصور أنها
يولاند ، تخرج من العمارة الشاهقة متأبطة ذراع صديقها . ولا شيء
في وجهها أو في عينيها ، أو في تقاطيعها ، يشبه أي شيء من صورة
يولاند ! . . فأدرك وهو كالمعتوه أن أدبث قد اختلطت في خياله بيولاند ،
وأن خديعة أدبث قد أثرت في وهمه على مسلك يولاند ، فتفطر قلبه حزناً
وشفقة على المرأة الوفية المظلومة . ولم يتردد وانطلق يعدو صوب منزلها .
وقد عقد العزم على أن يستغفرها ، وعلى أن يقهر خياله ، ويقهر ماضيه ،
ويقهر سلطان أدبث ، ويتزوج فوراً بيولاند . .

وفي تلك اللحظة ، في تلك اللحظة نفسها ، وعندما اقترب من بيت
يولاند وهم بأن يدخله ، أبصر صديقه ، صديقه مورييس ، يتجه نحوه
مسرعاً ، ويستوقفه ويهيب به : كنت أبحث عنك . . ولما لم أجذك في
منزلك خطر لي أني ربما وجدتك في بيت مدام يولاند فجئت إلى هنا . .

خذ . . هذه رسالة لك من أديث ! . .
 فحملت فيه هنريك ولم يفهم . . نظر إلى الغلاف الأبيض وارتعش ..
 ثم تناوله وفضه وقرأ هذه العبارات :
 عزيزى هنريك . .

أعترف أنى كذبت عليك وخذعتك وأطلب منك الصفح . لقد عرض
 على الكونت اهرنبرج لقبه العظيم وثروته الطائلة وطلق امرأته من أجل .
 فاستهوانى أن أتزوجه وأن أكون سيدة ذات مكانة مرموقة وسلطان واسع
 وجاه عريض . ولكنى كنت أحبك يا هنريك وأنا لا أدرى . فلما ابتعدت
 عنى واتصلت أنا بالكونت وقبلت أن أتزوجه ، تبين لى بعد أن امتنحت
 أخلاقه وامتحننت نفسى ، أنى كنت مخدوعة فى عواطفى وأنى لم أحبب
 غيرك انت . فإذا كنت قد صفحت هنى وإذا كنت ما تزال تحبى
 فأسرع . بالسفر إلى فينا . وسأنتظرك أسبوعاً كاملاً فى نفس بيت أفاىرى
 الذى التقينا فيه . أما إذا انقضى الأسبوع ولم تأت فسأدرك أنك حاقدة
 على وأنت قد انصرفت إلى الأبد عنى . وعندئذ أمثل لحظى العاثر وأتزوج
 الكونت اهرنبرج . الفرصة أمامك فلا تضيعها وأسرع . إلى أحبك .
 أديث

وكان هنريك يقرأ الخطاب والدم يغلى فى عروقه . وثورة كبريائه
 تكاد تخنقه . . كيف ؟ . . أتزعم أديث أنها تحبه ثم لا تقطع كل صلة
 لها بالكونت اهرنبرج ؟ . . إذن فهى تفكر فى حبها دون أن تنسى
 مصلحتها ، وإذن فهى لا تحب ؟ . .

وشكر صديقه واستأذن منه وهم بدخول بيت يولاند . أراد أن
 يدخل . أن يرى المرأة التريهة الوفية الطيبة . أن يصارحها بكل شئ .
 أن يصل حياته بحياتها من فوره ليتخلص ويستريح . ولكن شيئاً أقوى منه

تمكن منه . ونهض في وجهه ، واعترض طريقه ، وجذبه إلى الورا . فكر
راجعاً إلى منزله . مطرق الرأس . محدودب الظهر . ينعم النظر في أمر
نفسه ويتأمل . .

أنى أن يرى يولاند وأنى أن يسافر إلى فينا ويتصل بأديث . .
أحس وهو ذاهل شارد أن غرامه القديم قد استيقظ فأنى أن يخدع
يولاند . وأحس وهو حائق ساخط أن أديث غير صادقة في حبها فأنى أن
يذهب إليها تحت تأثير المساومة والتهديد .

ومر يوم وهو ثابت . وتلاه يوم آخر وهو ثابت أيضاً . وفي
اليوم الثالث بدأت تضمحل إرادته . فكافح وناضل ما استطاع . ولكنه
في اليوم الرابع فقد حكمه على نفسه . وخانته أعصابه . فلم يعد يدرى
أهو ما يزال في اليوم الأول أم أنه قد بلغ اليوم الأخير .
واستبد به طيف أديث . راوده وأذهله وسحره . طوعه وأخضعه واندمج
فيه . فعز عليه أن ينسى . وعز عليه أن يزهد . وعز عليه أن يودع السعادة
وهي توشك أن تصبح طوع يديه . .
واستهول كيف ترك كل تلك الأيام الطويلة تغلت منه . فأسرع
ملهوفاً . يود أن ينهب الأرض ويؤخر دورة الزمن . وركب القطار وسافر
إلى فينا . .

وما إن وصل واستفسر عن أديث . حتى أبلغوه أن اليوم هو يوم
زواجها . وأن موكب العروسين قد خرج منذ فترة واتجه نحو الكاتدرائية
الكبرى حيث تقام حفلة القران .

جن جنونه . وطوح به الغضب . وعبث به الأمل . فلم يستطع أن
يتصور وجود المستحيل . واستقل سيارة وانطلق بها إلى الكنيسة . .
بيد أنه لم يكذب يدخل ، حتى شاهد الشموع مطفأة والموكب يخرج .

فأيقن أن كل شيء قد تم . وأن القران قد عقد . فتاه فكره . واختبل عقله . واندفع بالرغم منه وشق زحمة الجماهير ودنا من أدب . صارخاً فيها وهو يصعد بصره الزائغ في ثوبها الأبيض الناصع . وفي الإكليل . إكليل الزهر الذى توجت به رأسها : هأنذا . هأنذا يا أدب ! . . . فبهت المدعوون وتراجعوا مذعورين . وذهلت العروس وجمدت . واضطرب الكونت اهرنبرج . والتفت إلى عروسه . وقال وهو يرمقها بنظرة صارمة : ألم يبتعدنا هذا الرجل يا أدب ؟ . . . فأتادت الفتاة لحظة ثم رفعت رأسها في شموخ ثم قالت في صوت هادىء ثابت جهوري رن في أرجاء الكنيسة رنين المعدن الصلب : أنا لا أعرف هذا الشاب ! . . .

ونحت هنريك بذراعها ومر الموكب . فاندلعت عينا الشاب . وانخلع بدنه . وأحس نفس ضربة الآلة الحادة تهوى على رأسه . فتنطوح وكاد أن يرسل صرخة ويسقط على الأرض . ولكن وحياً طارئاً هبط عليه في تلك الساعة . وأخجله من ضعفه وذله وتدهوره . وزين له الثأر والنسيان والخلاص في طلب التفوق . فتحامل على نفسه جاهداً . واستجمع مدخر قواه ، وانطلق من فوره إلى داره . وشرع يسجل على الورق هذه القصة . ويكتب مأساة ربيع الفاجع بحسرة روحه ودم قلبه ودموع عينيه . . .

نهاية المطاف

« من حياة الروائي الفرنسي بلزاك »

طالع الرجل الخطاب وهو مذهول . لم يصدق أن هناك امرأة يمكن أن تفكر فيه على هذه الصورة ، ويمكن أن تكتب إليه بمثل هذا الأسلوب .

وكان الأسلوب متدفقاً حاراً ، تضطرم فيه عاطفة محتجزة . . وتشع منه عبارات مجلجلة خالصة الحماسة والصدق في الإعجاب والتقدير . وكانت المرأة تقول إنها افتنت بإحدى قصص الرجل ، وأن القصة ألهمت خيالها ، وأيقظت مشاعرها ، وهدتها إلى عالم رائع من الشعر الواقعي الحلي لم تكن لتحلم بوجوده أبداً . . وظل الرجل يتلو الخطاب ، وينعم النظر في عباراته ، ثم يتأمل التوقيع في سهوم وشروذ وحقق .

لم توقع المرأة الخطاب باسمها بل ذيلته بثلاث كلمات فقط هي : « الأجنبية الروسية المعجبة » . فعاد الرجل يتفرس في التوقيع وقلبه يخفق وهدنه يرتجف .

كان قد تسلم عشرات الرسائل من معجبات ، ولكنه لم يحس أبداً حيال أية رسالة نسوية بما يحس به الآن .

لقد بهرته فتنه العبارة ، وخليته بلاغة الأسلوب ، وسلبت له حماسة الإعجاب والتقدير . وزادت في انجذابه تلك العاطفة الخفية المتغلغلة بين السطور ، والمقرونة بغموض شخصية المرأة وبسحرها البعيد المجهول . وهز كتفيه وألقى بالرسالة جانباً وحاول أن يعمل وينسى . بيد أنه لم يكد يمضي في كتابة قصته الجديدة ، حتى تاه فكره ، وتشوش

خوابه ، وعاد طيف المرأة الأجنبية وجثم أمامه . . فنهض من فوره وجعل يذرع الغرفة وهو مكروب ، ثم جاشت بغتة عواطفه ، واستعر فضوله ، فأسرع وكتب إلى رئيس تحرير جريدة فرنسية كانت تصدر في روسيا ، وطلب منه نشر إعلان صغير في صحيفته .

وذيل الإعلان بالأحرف الأولى من اسمه ، وطلب فيه إلى المرأة المجهولة أن تكشف له عن عنوانها كي يستطيع أن يرسلها . .

وما إن ترك البيت وهبط الشارع وألقى بالخطاب في صندوق البريد ، حتى تنفس ، وتألفت عيناه ، وانطلق يمشى في شوارع باريس ، مفتوح القلب ، مثلج الصدر ، خفيف الخطى ، كأنه كان على ثقة من نفسه ، وعلى ثقة من نجمه ، وعلى ثقة من أن المرأة الساحرة الغريبة لا بد أن تكشف له في الغد عن شخصها ، ولا بد أن تلبى نداءه وترد عليه .

وبالفعل جاء منها خطاب آخر بعد أيام . . فعرف أنها سيدة من أسرة كبيرة : وأن زوجها يكبرها بأكثر من عشرين سنة ، وأنه مخلوق فظ مستبد مدمن على الخمر ، يعذبها ويضربها ولا يهتم إلا بأرضه وضياعه وأملاكه الواسعة ، وأن اسمها هو الكونتيس (إيفلين هانسكا) ، وأنها تعيش في مجاهل أوكرانيا ، وأن قلبها وعقلها وروحها وكل شيء فيها يهفو إلى رؤية الرجل العظيم الذى ألهب بقصصه كيائها وهداها إلى دنيا الشعر والعاطفة والهوى .

وأحس الرجل وهو يتلو الخطاب الثانى أن حلمه الأبدى فى العثور على امرأة مثالية قد يتحقق ، وأن هذه المرأة قد تكون هى التى ينشدها ، وأنها لو كانت فوق ذكائها الخارق وثقاتها الوافرة . . جميلة ، فانه يكون قد رضى عنه وأشفق عليه ومنحه وهو فى غمرة جهاده وعذابه ما يستحق من راحة وسعادة ونعيم . .

ومضى يرسلها . فتم التعارف بينهما . واستراح كل منهما إلى الآخر .

فاشتد حبهما على مر الزمن ، واستحال إلى اندماج معنوى مطلق لا ينقصه غير اندماج الجسد كى يصبح حباً انسانياً كاملاً . . وهكذا أحب الرجل بالفكر والخيال طيفاً . وظل يحب الطيف أعواماً . ولا بطمع إلا فى أن يرى فى يوم وجه هذا الطيف حقيقة ملموسة واقعة .

وكان هذا العاشق العظيم المفتون بامرأة لم يرها . هو القصصى الفرنسى العبقرى (أونورى دى بازك) . لم يكن قد عرف من الحب غير النزوة البدنية العابرة التى تكرب نفس المفكر وتذيقه بعد وقدة الشهوة طعم الرماد . وكان لفرط اشترازه من الغوانى . وشدة حاجته إلى المال وتراكم الديون عليه . يقع فى حجرته . ويرتدى جلباباً أشبه بمسوح راهب ، ويشغل ثلاثة أرباع يومه وهو يجرع أقداً متعاقبة من القهوة ، ويكتب القصة تلو القصة ، عساه أن ينسى ديونه . وأن ينسى فى غمرة العمل حسرته على الحب والعاطفة والحياة .

فلما فاجأته العاطفة وهو يائس منها ومنذفع فى الكتابة يريد أن يصور الطبيعة البشرية ويخلقها خلقاً ثانياً ويبدعها ، أحس أن المرأة المجهولة قد أشرقت على حياته . فتشبث بها . وتلهف على شىء من الراحة بقربها ، وظل يتوسل إليها فى رسائله أن ترحمه وتقبل عليه . حتى أجابته إلى سؤاله . فالتقى بها فى سويسرا عام ١٨٣٣ . وحدث فيها ذاهلاً مبهوئاً وارتجف .

أبصر امرأة رائعة الجمال . ذات جبهة عالية ناصعة . وشعر أسود غزير ، وعينين واسعتين رقيقتين . ونظرة حاملة وسنانة ندية أشبه بواحة صغيرة تلمع فيها المياه وتراقص الظلال . واستوثق من أنها هى ضالته المنشودة وأمله المبتغى . فهام حباً بها ، وكذلك هى عشقته عشقاً عنيفاً مبرحاً مازجت فيه بين الحب والإعجاب ،

ورصدت عليه كل حياتها . أخلصت للعبرى إخلاص المرأة المضطهدة المحرومة التي تبحث عن حب واحد ، ورجل واحد ، والتي تهب نفسها دون غرض ، ولا تطمع في أكثر من أن يقابلها حبيبها ولاء بولاء وإخلاصاً بإخلاص . .

ومكثنا في سويسرا بضعة أيام خالسا فيها النعيم ، ثم سافرت مدام هانسكا إلى بلادها ، ثم لج بها الشوق فالتفتت هي من بلزك أن تراه . فعادا والتقيا في فينا حيث أبدع الروائي في ضوء المرأة وتحت تأثير الوحي المستمد منها قصته الرائعة (أوجيني جرانديه) .

وأحس الرجل المبدع الخلاق أن هذه المرأة هي حافزه ومثار قوته ، فازداد حباً لها ، وتعلقاً بها ، ورغبة في حيازتها بالزواج . فتأثرت بعمق عاطفته . . ولكنها أبت أن تحطم حياة زوجها . . فوعدت الروائي بأن تتزوجه لو شاء القدر وتوفى الكهل قريتها .

وامتثل بلزك لمشيئتها على مضض ، وعادت هي إلى روسيا ، وكر هو راجعاً إلى باريس ، وملء نفسه الأمل في أن يلقاها في أوروبا مرة ثالثة . وهنا وقعت المأساة .

أصيب زوج الكونتس بمرض عضال ألزمه فراشه . فاضطرت المرأة إلى المكوث بقربه ، والعناية بصحته عامين طويلين ، ولم تستطع إلا أن تراسل بلزك وهي تحن إليه وتمزق .

وكانت رسائلها في تلك الفترة تفيض حباً ، وتنقد إخلاصاً ، وتلهب شوقاً ولوعة وحرقة . بيد أن بلزك الذي كانت تصوراتها قد امتلأت بها ، والذي كان يعيش ويعمل وهو مشرب العقل والقلب إليها ، لم يطق بعدها الطويل عنه . فأحس أن حياته خاوية ، وروحه ظامئة ، ومرجل بدنه يغلي ويطلب المرأة . فمعجز عن مغالبة نفسه ، ومعجز عن كبح شهوته ، وخرج إلى المجتمعات الكبيرة ، واتصل بالسيدات المترفات وانجذب إلى واحدة

منهن تدعى الكونتس فيسكونتى . .

ولم يدر كيف انحط وتدهور وخان محبوبته . فأراد أن يبتعد . .
أراد أن يقاوم . أراد أن يحبس نفسه فى صومعة العمل ولو اختنق بين
جدرانها ومات . ولكن جسد المرأة الثانية كان يفتنه ، بل كان يحوم حوله
ويدعوه . فارتجى فى بؤرة الشهوة مكرهاً ، ثم أفلت منها عازماً ومقسماً ، ثم
عاد إليها متهافتاً ومستخذياً ، ثم حزم أمره ذات ليلة وعزت عليه كرامته ،
فقطع فى لحظة كل صلة له بالمرأة وابتعد . .

ابتعد وندم وتاب . ولكن بعد أن كانت مدام هانسكا قد عرفت
بخيائنه . .

ترامى إليها نبأ الخيانة من إحدى صديقاتها فى باريس . فثار ثائرها ،
وتفطر قلبها . ونهشت صدرها الغيرة . فكتبت إلى بلزك رسالة مريرة فى
حسرتها ، قاسية فى صراحتها ، وحشية فى كبرها واعتزازها ، تبلغه فيها
أنه لن يتبقى بعد الآن كلمة منها . وأن كل شئء بينهما قد انتهى . .

وعثا حاول الرجل أن يسترجمها . عبثاً حاول أن يقنعها بأنه قد تعذب
بهفوة جسده وكفر عنها . أثبت أن تسمع ، وأبت أن تكتب . وأبت أن
تصدق أنه ما يزال يحبها ، وأن روحها هى ، وجسدها هى . وفكرها هى .
وجميع محاسنها الحسية والمعنوية ما تفتأ تستبد به وتسيطر عليه .

وهكذا كفت عن مراسلته . . فظل هو يكتب إليها . ولكنها ترفعت
عليه ، وصدت عنه ، وثبتت فى موقفها سبع سنوات . .

سبع سنوات لم يرها فيها بلزك مرة واحدة . سبع سنوات تتفضل
عليه فيها بكلمة واحدة . فأحس الرجل أنه بخيائنه قد استحق هذا العقاب .
فلم يحقد ، ولم ييأس . وظل يحب مدام هانسكا ويخلص لها ويكتب إليها
ويعف عن النساء ويأمل فى رحمها وعودتها وصفحتها وهو يتمثلها ويصرخ
فى وحدته كعنتوه .

وفى بلعة هذا السعير من اللهفة والقلق ، والأمل واليأس ، والتخطيط والعذاب . . انطلق العبقري يكتب ، مضحياً بنفسه ، منتقماً من ذاته ، مكفراً عن خيانتته بالعمل المتواصل المرهق الشاق ، فوضع فى تلك السنوات السبع أكثر من ثلاثين قصة كبيرة . . فاستفاضت شهرته . ولكن صحته كانت قد اعتلت ، وبدأت الأمراض تهاجمه . فيئس كل اليأس من عودة حبيبته إليه ، وفكر فى أن يكف عن الكتابة ويدخل أحد المصحات . وعندئذ تسلم من مدام هانسكا خطاباً أنبأته فيه بأن زوجها قد توفى . فأخذته من فرط الدهشة والأمل فرحة محبولة ، وكاد أن يغشى عليه . أيقن وهو يقرأ الرسالة الأولى التى تلقاها بعد سبع سنوات من الصبر والحرمان والعذاب ، أن المرأة ما تزال تحبه وأنها قد غفرت له جريمته ، وأنها ما دامت قد كتبت إليه اليوم وهى حرة ، فهى إذن تريده . وهى إذن تطلبه ، وهى إذن تود أن تصل حياتها بحياته . .

فأسرع وأفضى إليها فى خطاب رائع بكل ما قاساه وهو بعيد عنها . ثم عرض عليها الزواج ، وسافر إلى بطرسبرج والتقى بها . . وكانت المرأة قد اكتملت وخطط شعرها الشيب ، وكان هو قد اكتمل أيضاً . وشحب وجهه ، وضممرت تقاطيعه ، وأنهكته أمراض المعدة والقلب . ولكنه لم يشعر بما طرأ على المرأة من تحول ، وكذلك هى لم تشعر بما بدا عليه من إنهاك . رأى كل منهما الآخر بعين قلبه وشبابه . فاستفاق حبهما وانبعث فى مثل لمح الطرف جارفاً عاتياً كما كان . بيد أن المرأة ظلت مترددة وقلقة . خافت من الزواج بحبيبها لأن غريمتهما الكونتس دى فيسكونتى كانت تعيش على مقربة منه فى باريس . فانخلع قلب بلزاك ، وأقسم لحبيبته أنه قد قطع كل صلة له بتلك السيدة ، وأنه قد عفى عن النساء جميعاً ولم يعرف طوال تلك السنوات السبع أية امرأة . ومع ذلك فاطمأنينة لم تحل فى نفس مدام هانسكا إلا بعد أن شاء القدر وهجرت غريمتهما فجأة باريس واستقرت

هى وأهلها فى إيطاليا . وإذ ذاك أطلقت المرأة العنان لحبها ، ووثقت كل الثقة فى حبيبها ، ووعدته بالزواج راضية ومختارة ، على أن تسافر قبل ذلك إلى بلادها ، وتؤدى ما عليها من واجب مقدس نحو ابنتها .

وسافرت والعزم يحتويها ، وإرادة السعادة بعد طول العذاب تحبها وتدفعها . فزوجت ابنتها ، ونزلت لها عن الضياع والأملالك التى ورثتها عن زوجها ، واكتفت بأن ضمنت لنفسها دخلاً شهرياً ثابتاً . ثم عادت إلى باريس وولء صدرها الالهفة على تحقيق حلمها . . . ولكنها ما إن دخلت بيت بلزك . . . ما إن وقعت عينها عليه . حتى ارتعدت فرائصها ، وأصابها من فرط الرعب شبه ذهول . . أبصرت رجلاً متداعياً هراً حطمه جهده الخارق فى العمل والإنتاج . رجلاً أصفر الوجه ، غائر القسمات أحسر البصر ، يجر نفسه إليها جراً ، ويتحسس طريقه نحوها فى لوعة وأسى ، باكياً على نفسه ، تائراً على حظه ، يصرخ ويردد بأن جسده الجبار قد تقوض ، وبصره الوضاء قد تلبد ، وأن لم يعد فى وسعه أن يقرأ ويكتب ويبدع للناس أيضاً أروع الأعمال .

وتجاه هذا المشهد الفاجع ، تجاه الرجل الصلب المكافح الذى غاض جماله ، وانطفأ سحره ، واستحال فجأة إلى هيكل عظمى ، لم يتبدل المرأة . لم تراجع . لم يخالجها أى إحساس وضعيع فيه شبهة من تردد أو نفور أو اشمئزاز . بل اضطرم حبها ، واشتعل حنانها ، وتمرق قلبها شفقة ورحمة . . فمدت ذراعها ، واحتضنت الرجل المريض ، وقالت له وهى تضمه ضمّاً عتيقاً إنها ملكه هو وحده ، وإنها لن تتخلى أبداً عنه ، وأنه كان وسيظل حبيبها ، وسيد جسدها وروحها ، وشريكها فى الحياة حتى تلفظ النفس الأخير .

وتزوجته ، وخدمته ، وبذلت المستحيل كى ترد إليه وقدة الصحة والنشاط

والفرح . ولكن العبقري المسكين كان قد استنفذ قواه ، وكان يكافح
ويصارع ويأمل على غير جدوى . فلم يعيش مع حبيبته غير خمسة أشهر ..
خمس أشهر فقط ، ثم مات بين ذراعيها وهو يقبلها ، ويلثم يديها ، ويتسم
برغم حسرتة . . ويشكر الله . .

حب إلى الأبد

من حياة الأدبية الفرنسية فرانسواز بارتو

كانت فتاة جميلة وذكية ، بل متقدمة الذكاء ، تهوى الأدب والفن ، وتعشق المطالعة والتأمل ، وتعيش في عالم مثالي يخيل إليها أن من اليسير أن تحققه لها الحياة في يوم من الأيام .

تلك هي الأدبية النابغة « فرانسواز بارتو » التي ولدت في باريس عام ١٦٢١ وتوفيت عام ١٦٨٩ والتي ذهبت بحياتها وجهادها مثلاً في تفوق العقل ، ونيل النفس ، وطيبة القلب ، وصدق الحب ، وروعة الإخلاص والبذل والتضحية ... كان والدها مجرد تابع لأحد الأشراف في بلاط الملك لويس الثالث عشر ، وكان رجلاً فقيراً ووصولياً وطماعاً . فأذهله من ابنته فرط جمالها وذكاؤها . وأراد أن يسخرها لمصلحته ، وأن يظفر بالمال والجاه على حسابها ، وأن يزوجهها بشيخ ثرى مهلم مريض ، يدعى « الكونت دى موتفيل » يبلغ من العمر ثمانين سنة . . .

وكانت فرانسواز موعة أشد الواع بشاب من صغار الموظفين . يدعى « ريمون » وكان الشاب قد عاهدتها على انزواج . فلما أدركت أن والدها يريد أن يصل حياتها بحياة الشيخ المهلم الكونت دى موتفيل . ثارت الفتاة ثورة عارمة . وهددت بترك البيت . ولكن والدها النذل الخسيس اللئيم نافسها في ثورتها ، واصطنع الحزن واليأس ، وأسرع وطعن صدره بسكين متعمداً ألا يصيب نفسه بأكثر من جرح بسيط ، يلتقي في روع ابنته أنه قد عزم بالفعل أن ينتحر . . . وأبصرت الفتاة نقط الدم تنحدر على صدر أبيها . فعز عليها أن تقتله ، فطأطأت الرأس صاغرة وذهبت فقصت على

حبيبها كل شيء ، ثم ودعته وقليلها يتفطر ، وارتضت وهى فى العشرين من عمرها أن تتزوج شيخاً فى الثمانين . . .

وعاشت فى قصر الكونت متحسرة على حظها ، مشمئزة من نفسها ، كارهة نعيمها . تذكر حبيبها ريمون فتنهمر عبراتها ، وتذكر والدها الذى عرفت خبيثته ، والذى وصل وفاز وأثرى . فيغلى الدم فى عروقها فلا تستطيع أن تدفن دمها إلا فى المطالعة والكتابة وشتى ضروب الزهد والتقص والتعب والتقوى .

وكانت صورة ريمون الموظف الفقير تحتل خيالها ، ومستقبله يشغل بالها ، ومصيره فى الحياة لا يفتأ يعذبها . فأرادت على الأقل أن تسعده هو ، أن تثار من حظها بأن تكفل خطأ سعيداً له هو . فوقع اختيارها على فتاة من وصفاتها : مستقيمة وجميلة وميسورة . فاتصلت بالشاب . وعرفته إلى الفتاة ، وبصرته بغضائنها ، ومكانة أسرته ، ووعدته لو تزوجها أن تمنحه مبلغاً كبيراً من المال يمكنه من الظهور بمظهر لائق أمام أهلها . . . وشاء القدر أن تروق الفتاة فى عين الشاب . بل شاء القدر الساخر أن ينسى الشاب حبه القديم وأن يهيم بالفتاة . فتمزق قلب فرانسواز . ولكنها أبت إلا أن تتم صنيعها وتزوج العاشقين . فنهحت ريمون المبالغ الذى كانت قد وعدته به ، وشرعت تعاونه وتعاون الفتاة فى إعداد معدات العرس . . .

وقبل أن يحين يوم العرس بشهر واحد ، توفى الكونت دى موتفيل ، وأصبحت فرانسواز الأرملة الصبية الجميلة التى لم يدم زواجها أكثر من عامين ، سيدة ثرية عظيمة يرمقها الشباب بعين اللهفة والطمع . وعندئذ وقع شيء غريب ، شيء لم يكن فى حسابان المرأة أبداً . تحول ريمون بغتة عن الفتاة . ومال إلى الأرملة . وألهب فى صدره عامداً حبه العنيف القديم ، وحاول أن يلهب هذا الحب أيضاً فى صدر فرانسواز وأن يتزوجها ويظفر بها . . . بيد أن خطيبته وقد روعها غدره ، تعذبت

ومرضت ، وعافت كل طعام وشراب وأرادت أن تموت . فهال فرانسواز
التي استيقظ حبها القديم لريمون ، أن تقتل هذه المرة مخلوقاً بريئاً طاهراً
صادقاً ، ينشد الهلاك فعلاً ولا يصطنع الانتحار اصطناعاً كوالدها .
فغالبت نفسها ، وخنقت عواطفها ، وأبت ألا أن يتم الزواج . ولكن ريمون
فسخ الخطبة ، واستولى على المال الذي وهبته إياه فرانسواز ، وزعم أن حبه
لها أقوى منه ، وإنها وهي تدفعه إلى غيرها تظلمه وتشقيه وتحكم عليه بالوعدة
والذل والشقاء الأبدي . . وهكذا أصر هو على التزوج بفرانسواز ، وأصرت
هي على رفضها . فجن جنون الفتاة ، واشتدت عليها وضأة الضعف والمرض
فماتت فجأة وهي تستنزل اللعنة على الشاب والمرأة معاً . . .

هذه الصدمة أحدثت أبلغ الأثر في نفس فرانسواز . اعتقدت أنها
هي التي جنت على الفتاة ، وهي التي تسببت في موتها ، وهي التي أجمرت
بمحاولة تزويجها بشاب كان بالأمس حبيبها هي . فاسودت الدنيا في عينها
وكبر عليها أن تقرن ريمون على جثة ضحيته . فأوصدت في وجهه أبواب
قصرها ، ثم انطوت على ذاتها ، ولاذت بالمطالعة والكتابة والتأمل والصلاة ،
وآلت على نفسها ألا تنظر إلى رجل وألا تخطر على بالها أبداً فكرة الزواج . . .
وكان تحول ريمون عن الفتاة بعد أن أحبها ، واتجاهه إليها بعد أن استولى
على مالها ، قد أقنعها بأن الشاب الذي عشقته في الماضي وارتد اليوم إليها ،
ليس أكثر من رجل أناني ووصولي وطماع كوالدها . ولكنها كانت لم تزل
تحبه . كانت ترى فيه فجر حياتها ، وتعبد في شخصه أحلام حداثتها
وشبابها . وكانت قدرتها اليوم على الزواج به وهي حرة تضاعف من
تعلقها به وعشقها له . فذكرى الفتاة الشهيدة تمكنت منها ، وخوفها من
تقلب الشاب وغدره استبد بها . فتشبثت بعزلتها ، وشرعت تكتب
مذكرات تصور فيها مأساتها وهي فتاة وزوجة وأرملة .

وعاشت أرملة ، طاهرة الذيل ، عفيفة ، نقية ، لم تشب سمعها أية شائبة . فاصطفها الروائية الشهيرة مدام دي لافاييت صديقة لها ، وأعجبت بها الماكة آن دوتريش وجعلت منها أولى وصيفاتها ، وميزها كبار رجال الفكر والفن وأقبلوا على صاوتها . . . وإذ ذاك . وبعد خمسة أعوام لم تعرف فيها رجلاً ولم ترفى خلالها ريمون ، ظهر الشاب فجأة ، واقتحم قصرها ، وترامى عند قدميها ، وأقسم لها أنه كان وما يزال يحبها ، وأنه هو الآخر لم يعرف طوال هذه السنوات أية امرأة ، وأنه لن يعيش ولن يسعد إلا إذا اقترن بها . . . وكما يحدث للمثاليين المحرومين الذين يتحرقون ، برغم زهدهم وحرمانهم ، على تحقيق مثلهم الأعلى ، نهافت فرانسواز على ريمون ، وصدقته ، ووعدته بالزواج ، وأرادت أن تعتقد وتؤمن بأنه قد تغير ، كما اعتقدت وآمنت بعد أن حرمت نفسها من الدنيا خمسة أعوام أنها قد كفرت عن الذنب الذى اقترفته فى حق الفتاة الشهيدة ، وأن فى وسعها اليوم أن تعيش وتسعد وهى مرتاحة الفكر والضمير .

وغمرتها سعادة لم تكن لتعلم بها ، وأحست أن الحب والشباب والمال طوع يمينها ، وأن الحظ الذى تنكر بالأمس لها قد أسلس اليوم قياده لحياتها ، وافتقر ثغره عن ابتسامة وضاعة ، لا يمكن أن تبدل أو تنقل غداً . . . وراحت فى نشوة الفرح والنصر تذيع فى الملاء قرب زواجها بينما كانت وصافئها تهب فى القصر حجرة خاصة لريمون ، وتحيك القميص الحريرى الذى أرادت الأرملة الصبية أن يكون أبيض ناصعاً ، وأن يكون هو القميص الذى ترتديه ليلة عرسها .

ولما لبى غمرة فرحها الداهل الخبول ، وإذا بالقدر الغاشم الذى تعقبها زمناً ثم ترفق بها ، يعود فيطاردها ، ثم ينقض عليها ، ويسدد إليها بيده الضارية طعنة فى الصميم . . . كانت تتجول ذات مساء فى ردهات قصرها ، فأبصرت ريمون نفسه ، أبصرته اتفاقاً ، يرتعى على

خادمة من خادوماتها ، ويوسعها ضماً وتقبلاً ، والفئة تملص من بين ذراعيه ملتزمة وساخطة ، لا تجسر على طلب النجدة والغيث ، خشية أن تتهم هي فتنقدها عملها . . . ولم تكد فرانسواز تبصر هذا المشهد حتى طاش صوابها . أما ريمون فقد أجفل وحنى رأسه وصمت . فشخصت إليه المرأة في ذعر ، في جنون ، وتحت تأثير حرقتها واشمئزازها واحتقارها ، أشارت إليه نحو الباب وهي ترتعد . فانتفض وحرق فيها . ولكنها صرخت في وجهه . فانصرف على الفور متعيراً ، وتهاكت هي على مقعد ، وظلت جاحظة العينين ، فاعرة الفم ، تزفر وترتجف .

وأرادت أن تنساه ، أن تستأصله من قلبها ، أن تجتث طيفه من تصورها وخيالها . ولكن العجيب أن خيانه ضاعفت من حبها له ، ومن رغبتها في استرداده . فأدركت وهي تكاد تنقطع ، أن ليس في وسعها الفكاك منه ، وأنه هو حبها الوحيد . وأنها مهما حاولت فلن تستطيع أن تكون لرجل غيره . فهمت بأن تستدعيه . ولكن كبرياءها اعترضها ، وكُلبت فيها شعور الكرامة والعزة . فاستجمعت قواها ، واستنهضت إرادتها ، وأبت إلا أن تنتظر حتى يعود ريمون من تلقاء نفسه نادماً مستغفراً ، فتأكد أنه حقاً يحبها . فتجاوز عن سقطته الشائنة وتصفح عنه .

بيد أن ريمون الذي أحس ذنابة مسلكه والذي لم يفهم إلى أي حد من السباحة والطيبة والوفاء يمكن أن تذهب المرأة في حبه ، اعتقد أنها قد أبغضته وصرفته إلى غير رجعة . فخشى أن يعود فيطرده مرة ثانية . فتحول بعامل الأنانية والطمع ، وانطلق يبحث عن مصلحة عند امرأة أخرى . . .

وفجأة أيضاً ، وبعد انقضاء بضعة أشهر ، علمت فرانسواز وهي ذاهلة ومنسحقة أن ريمون فعل مختاراً ما فعلته هي بالأمس مكرهة ، وأنه باع شبابه وجماله وحياته لامرأة عجوز دميمة ومريضة ، تزوجها من أجل مالها

وانهار كل حلم تعلقت به فرانسواز ، وأحست أن لا غاية لها في الحياة ولا أمل . فاندفعت تكتب وتصور في مذكراتها مأساتها الجديدة هذه بقلم من نار ، وأفكارها وعواطفها ما تزال مأخوذة ومسلوبة ومتجهة نحو ريمون... أجل . كانت برغم كل ما وقع تحبه . كانت تشعر أن ليس في مقدورها إلا أن تكون في الماضي والحاضر والمستقبل وإلى الأبد له وحده . فانقطعت عن العالم ، ودخلت أحد الأديرة : ومكثت فيه أربعة أعوام تمارس شتى الرياضات الروحية وتفكر في أن تصبح راهبة . ولكنها لم تستطع . لم تنفذ إلى قلبها دعوة الله . فأرادت أن تعيش فقط . أن ترى الشمس والنور ، أن تملأ بصرها وسمعها من فتنة الكون دون أن تتزوج ، فخرجت من الدير وعادت إلى قصرها . ولكنها ما إن استقرت فيه عدة أيام حتى بلغها نبأ الحادث المروع الذي حطمها تحطماً .

كان ريمون قد اشتهر من مآل زوجته العجوز ، وشرع ينفق على أنصاف الحرائر والبغايا . فلما ثارت امرأته وقبضت يدها عنه ، سرقها . فبلغ عنه شقيقها . فلكى يرد إليها ريمون ما اختلس ويجنب نفسه السجن والعار ، قامر بما بقى معه . فخسر كل شيء . فأطلق على نفسه الرصاص ، وطلب إلى أصدقائه وهو جريح أن يسرعوا بحمله إلى قصر صديقه فرانسواز . . .

ودخل الأصدقاء بالشاب الجريح ، وهو أصفر الوجه ، مشعث الشعر غائر العينين ، مضرج الصدر بالدم . فهال المرأة منظره ، فتلقته بين ذراعيها ، وأرقدته على فراشها ، وأمرت باستدعاء طبيب ، ولكى تنقذ اسمه وسمعه من العار ، استفسرته عن المبلغ الذى تطالبه به زوجته ، وعجلت بإرسال المبالغ إليها ، ثم عكفت على الشاب تخدمه وتمرضه وتسهر عليه وتبذل المستحيل كى تنتزعه من براثن الموت وأو وهبته في الغد أيضاً لغيرها . ولكن الجرح كان بليغاً ، والجسد خائراً ، والطب عاجزاً . فللفظ ريمون

أنفاسه الأخيرة بين ذراعى فرانسواز وهو يعانقها ويقبل يديها فى حرقة
وبكى . . .

ونظرت المرأة إلى جثة الرجل الذى كان كل حياتها ، وملكها
الرب . فلم تستطع أن تصدق ، ولم تستطع أن تصرخ ، وسقطت على
الأرض مغشياً عليها .

* * *

وعاشت « فرانسواز دى موتفيل » للحب والفكر ، طاهرة ونقية ،
تكتب مذكراتها الرائعة التى خلقتها ، وتمثل حبيبها المعبود ، فتنسى
غدره وخبثه وأنانيته وطمعه ، ولا تذكر غير شىء واحد فقط ، وهو أنه فى
ساعة اليأس هرع إليها هى ، وأنه مات بين ذراعيها هى ، وأنه فى لحظة
الأخيرة قبل يديها فى حرقة وبكى . . .

امراة تحمل راية السلام

من حياة المجاهدة التشيكوسلوفاكية برتا سوتر

كانت امراة ذات نفس عالية ، وقلب كبير ، ونزعة إنسانية أصيلة ، وإيمان راسخ بوجوب إقرار المحبة والإخاء بين البشر أجمعين . تلك هي (برتاسوتر) التي ولدت في مدينة براج عام ١٨٤٣ ، والتي كانت أول امراة حملت لواء السلام في أوروبا . ووقفت في وجه دعاة الحروب الاستعمارية من رجال السياسة والمال .

كانت برتا وهي فتاة مرهقة الحس ، مشوبة التصور ، عميقة الشعور بآلام الغير ، تقضى معظم لياليها في مطالعة كتب التاريخ فيقولها وصف معارك الفتح والاستعمار . فيثور نائرها على فكرة الحرب . فتشفق على البشرية منها وتتعذب عذاباً مريراً . ولا تستطيع أن تذوق طعم النوم . وكانت قد شغفت حباً بضابط من ضباط حرس إمبراطور النمسا يدعى الكونت كنسكى . وكان هذا الرجل من غلاة المؤمنين بأن الحروب الاستعمارية هي ميثار التطور ، وحافز المدنية ، وأنها غريزة في الإنسان بل قدر محتوم كتب عليه . فأحدث هذا الخلاف في الرأي نزاعاً بين الحبيبين كاد أن يقضى إلى انفصالهما . ولكن برتا لم تيأس من اجتذاب الكونت إلى ما تعتقد أنه الحق . فضمت تبسط أمامه صفحات التاريخ وتقول له إن حرب الاستعمار هي شر على الإنسانية من الأوبئة ، وإنها لا تخلف وراءها غير أطلال وأنقاض ، وأن المنتصر فيها خاسر كالمهزوم ، وأن كل ما ربحه نابليون في أعوام فقدته في لحظة ، وإن الحضارة لا يمكن أن تزدهر بالطمع المدفع إلى القتل بل بالتعاون والمحبة والإخاء على أساس

الاعتراف بما لكل أمة من حق مشروع في الحرية والاستقلال والحياة . .
ولم يقتنع الرجل بآراء برتا على الرغم من شدة حبه لها . وكبر عليه أن يقرن
بفتاة يقول عنها أهله وأصدقائه إنها ساذجة العقل ، محدودة الفكر ،
متعصية الخيال طائش يجعلها من دعاة الهزيمة . فخشى لو تزوجها أن
تسوء سمعته في الجيش . فصد عنها ، وقطع كل صلة له بها ، وتعلق بفتاة
من أسرة ألمانية بروسية يعتقد أفرادها أنهم من جنس بشري ممتاز ، وأن من
حق جنسهم أن يحارب ويفتح ويغزو كي يثقف العالم ويمدنه . . وحز في
صدر برتا أن يغدر بها الكونت بعد حب دام ثلاث سنوات . فاسودت
الدنيا في عينها . وبرح بها الهم ذات ليلة . فجاءت بأقراص منومة وعزمت
أن تنتحر . بيد أن خيانة حبيبها كانت قد هدت قواها . فناء عليها
في لحظة الانتحار تعب فجائي ساحق أخذ إرادتها ، وأرخص عضلاتها
وأعصابها . فاستلقت على الفراش ونامت وهي لا تدري . . نامت بضع
ساعات وحلمت . . حلمت بإنسان خرافي عجيب له وجه وحش وجسم
علاق ، يهجم على حديقة بيتها وفي يده منجل كبير ، ويقتحم فسحات
الحديقة مقهقهأ ، ثم يحصد بمنجله أزهارها التي استحالت إلى أجساد آدمية
صغيرة تصرخ من فرط الذعر وتتلوى وتطلب الرحمة وهي تسبح في أنهر
من الدماء . . وكان هذا الحلم هو الذي فصل في مصير الفتاة . . أيقنت
أن الوحش هو الحرب ، حرب الظلم لا العدل ، حرب الاستعمار لا
التحرر ، وأن المنجل هو منجل الطمع والموت ، وأن أزهار حديقها هم
الضحايا يستصرخونها الرحمة والإنسانية والخلاص . فهبت من فراشها واثبة ،
وعز عليها أن تموت رخيصة ، وآلت على نفسها أن تهب حيانها كلها لخدمة
الحق والحرية والإخاء والسلام . . ولم تعد تفكر في الرجل ، ولا في الحب
والزواج ، وانزوت في ركن من بيئها وشرعت تتثقف . . طالعت أيضا
كتب التاريخ وغيرها في الإجتماع والفلسفة . ثم تزودت بقسط وافر

من أدب اللغة الألمانية ثم أفرغت عصارة ذهنها في إبداع كتابها الأول المعروف باسم (ضعوا السلاح) . . ولم يكد يظهر هذا الكتاب حتى أحدث في دوائر الساسة وأهل الفكر دوياً منقطع النظير . راعهم من المرأة إيمانها بفكرتها ، وقدرتها الحارقة في عرضها ، وحملتها الجريئة على المستعمرين وأسلوبها المتدفق الحار في الدعوة إلى السلام والعدل . يؤيده منطق محكم مستمد من أبرز وأفجع حوادث التاريخ ، فانهالت عليها رسائل الإعجاب وسعى إليها عدد كبير من زعماء الأحزاب الاشتراكية واتصل بها (ألفريد نوبل) صاحب جوائز نوبل المشهورة . وأصبحت في أقل من شهر حديث أوربا بأسرها . . .

ووقع الكتاب في يد حبيبها الغادر الكونت كنسكى . فما إن قرأه حتى بهت وذهل . لم يكن ليتصور لحظة واحدة أن في وسع برتا أن تضع مثل هذا السفر الخالد . فتأثر بدعوتها . وانجذب إلى أفكارها . وخالط الفكر منه القلب والروح ، فتنهت عواطفه . واستيقظ ضميره وارتد إليه حبه الأول ، فاعتزم أن يتخلى عن فتاته البروسية . . . وزار برتا بالفعل ذات مساء ، وتراعى عند قدميها مستغفراً متوسلاً ، وأقسم لها أنه لن يتصل أبداً بغريمها ، ثم عرض عليها الزواج . ولكن برتا التي كانت قد انقطعت لجهادها والتي كانت تحب الرجل مع ذلك وتخشاه ، أرادت أن تمتحنه ، وأن تستوثق من صدق حبه لها ومن إيمانه أيضاً برسالتها . فطلبت إليه وهو النحيل الواسع الثراء ، أن يضع ثروته كلها في خدمة مبادئها بحيث يمكنها أن تنشيء المطابع ، وتصدر الكتب ، وتؤسس الأندية ، وتنتشر في مختلف العواصم دعوتها إلى مناهضة الاستعمار ، وتحرير الأمم المستعبدة ، ونزع السلاح . وإقرار السلام . . . ونزل الرجل على حكمها ، وبذل من أجل رسالتها معظم ما يملك . فتزوجته ، واستفاضة سعادتها . واتقدت عبقريتها ، ومضت تنشيء المطابع ، وتؤسس الأندية ، وتصدر سلسلة من المؤلفات

أهمها (عصر الآلة) و (تاريخ كفاحي) و (الحضارة بنت السلام) .
وعندئذ توطدت مكانتها ، وتألقت نجمها ، وباتت هي العلم الفرد للمحبة
الإنسانية والإخاء البشري . فمنحتها أكاديمية استوكهولم عام ١٩٠٥ جائزة
نوبل للسلام ، ثم عينتها الأحزاب الاشتراكية رئيسة للجمعية السلمية الأوروبية
ووكيلة لمكتب اتحاد السلام في مدينة برن . . غير أن القدر الذي حالها
عاد فتنكر لها وهي في قمة مجدها . لم يحتمل زوجها انصرافها إلى الفكر .
لم يطق منها أنهماكها في العمل . لم يجد في نفسه وهو الرجل قوة تدفعه
إلى مشاركتها في جهادها مشاركة يومية دائبة صادقة مخلصه . فاستبد به
خلقه المتقلب الأناني . وأراد أن تكون امرأته له وحده . وأن تكف من
أجله عن كفاحها ، وأن تتخلى في سبيله عن رسالتها . فأبت المرأة
واستنكرت . فدب النزاع بين الزوجين ، وتناقم واستفحل وأفضى إلى
طلاق .

وهال المرأة أن تطعن في قلبها . وأن تغتفر بالمجد ثم تفقد الحب .
فضل عقلها ، وتشوش ذهنها ، وظلت أشهراً طويلة تعيش في شبه يقظة
مخيفة بعد حلم رائع ، وتتنقل من بلد إلى بلد ، وتنشد عودة العفل والذكاء
والنشاط ولكن على غير جدوى . . وفجأة علمت بأن الكونت على وشك
أن يتزوج بغريمها . بانفتاة البروسية التي كان قد أقسم على التخلي عنها .
فما إن تثبت برتا من صحة هذا النبأ حتى أفاقا وارتد إليها عقلها . . لم تشأ
أن تجن أو تموت وتذهب ضحية فاستعرت كبرياءها ، واضطرم نشاطها
وعادت فتشيت برسالتها وأكبت على الكتابة والتأليف وهي تكافح كفاح
الحيابة كي تكون إنسانية في عواطفها كما هي إنسانية في تفكيرها ، وكى
لا تكره ولا تحقد ولا تحمل أية ضغينة للرجل المعبود الذي خانها وغدر بها
ولما جاء اليوم الغاشم الفاصل ، يوم عقد قران الكونت على غريمها ،
تحكمت برتا سوتنر في غرائرها ، واستأصلت من صدرها كل عوامل

الحقد والكمد واللاوعة . وارتفعت وسمت وكانت بالقلب والروح أيضاً امرأة عظيمة ومثلاً أعلى . . لم تتردد ، وذهبت إلى العروسين بنفسها ، وهنأتها بزواجهما . وقدمت لهما هدية العرس خاتماً ثميناً رائعاً . ثم قبلتهما وهي تحبس دموعها . وودعت الشباب وآماله ، والحب وأحلامه ، والزواج وبهيجته ، والأمومة وأفراحها ، ومضت غير نادمة ولا آسفة ولا متحسرة تستطرد جهادها بمفردها وتحمل راية الحق والعدل والحرية والسلام .

وثبة الروح

من حياة الشاعرة الفنلندية ماريّا بوجارت

هذه الشاعرة الفنلندية النابغة « ماريّا بوجارت » ، لم تضع غير ديوان شعر واحد . وهذه قصة حياتها وما كابدت واحتملت كى تضع ذلك العمل الفنى الفريد . نشأت ماريّا فى قرية نائية من قرى فنلندا وكانت بطبعها فتاة مرهفة الحس ، رقيقة الحاشية . ولكن والدها المستبد القاسى أشاع فى نفسها إحساساً عميقاً بالخوف وإظلم . فانطوت على ذاتها ، وبدأت مخلوقاً متكبراً متجهماً مستوحشاً . فنثر منها شباب القرية وأعرضوا عنها ، ولم يتقدم لخطبتها أحد .

ولم تستطع ماريّا أن تغالب نزعة الانطواء والانكماش التى تمكنت منها وأن تخرج وتنطلق أسوة بالفتيات أترابها . فاشتد إعراض الشبان عنها . فحزرت الهزيمة فى صدرها . فأولعت بالعزلة ، وعكفت على المطالعة ، وأرادت أن تستعوض عن الحب بالفكر . ولكن الفكر كان أول الأمر دخيلاً عليها ، ثقیل الوطأة على أنوثتها . فضلت بليدة الذهن ، هائدة الخيال ، تمر بها آراء الأدباء والمفكرين دون أن توقظ عقلها ، أو تحدث فى نفسها أثراً أكبر من ذلك الأثر الذى تتركه اللعب المختلفة الألوان والأشكال فى نفس طفل . فالفكر كان يعبتها بدل الرجل ، والفكر كان ملاذها بدل الأمومة ، والفكر كان طوق النجاة تتعلق به خشية التخبیط والتشوش ومواجهة اليأس والظلام . . . وراق لها أن تتمرّس بقرص الشعر . فنظمت شعراً غنياً تافهاً كان يسليها . فأيقنت من ضعف مواهبها ، ومن عجز مثل هذا الشعر عن لفت أنظار الناس إليها بحيث تجد فى متعة التفوق والنبوغ عزاء لنفسها . . وشيئاً فشيئاً ، جف عودها . وذبلت نضرتها ، وغافلها الزمن ودفع بها فى جوف السنين . فشاب

شعرها واكتملت . فلم يرحمها القدر أيضاً وحالف الزمن عليها ، وأصابها فجأة بالصمم والشلل . .

واستفاقت ماريًا ذات صباح وإذا بها لا تستطيع أن تحرك قدميها ، ولا تستطيع أن تسمع أو تتبين أى حديث يدور حولها . . أغلقت دونها أبواب الدنيا ، وحبسها المرض في جو من السكون الخانق روعها وأذهلها . فكانت ترى الناس فلا تفهم لهم غاية ، وترى العالم فلا تدرك له معنى . وترى نفسها فلا تدرك لوجودها سبباً .

وأحست أن الجنون يزحف إليها ويوشك أن يعصف بها . فهاهاها أن تكون قد حرمت من كل شيء ثم تحرم أيضاً من عقلها ، فأبت أن تضعف . وأبت أن تسلم . واستجمعت مدخر قواها وشرعت تكافح . . كافحت الصمم بحب الصمت ، وكافحت الشلل بحب الجمود . واكتفت بعالمها المغلق . وراحت تملأ ظلمات الصمت بأضواء الأمل . وتنفث في برودة الجمود اتقاد الفكر وحرارة الروح . . وكانت قد بلغت الخامسة والستين من عمرها فأحست أن هذه المرحلة هي الفاصلة في حياتها . فثارت على حظها . واستنكرت من نفسها كيف أنها لم تبدل المستحيل كى تتزوج وتلد وتؤدي رسالتها . فأرادت أن تتزوج وتلد ولو فكراً وخيالاً . فنهضت بغتة . وارتعت على مكتبها واختطففت قلماً . وبدأت تكتب . . وفاض منها الشعر الصادق الأصيل سيلًا جارفًا . فظلت تنظم طوال ليلها . ثم واصلت الكتابة والتنظم أياماً وهي تأثمة . ثم قرأت شعرها فبهتت لصدق ما نظمت . وبهتت لجمال ما أبدعت . وأحست أنها قد تزوجت بالفعل ونالت وسعدت . تزوجت مخلوقاً أعظم من رجل . مخلوقاً أثيراً مجنحاً . عانقته وعانقها . فاستولدها طفلاً هو أجمل وأروع وأبقى من أجمل وأروع طفل . . وكان طفلها الوحيد هو ديوانها الفريد . الذى أطلقت عليه اسم « وثبة الروح » . والذى نفتطف منه القصائد البديعة التالية :

هذا هو الحب

« أنا الحب الغاشم المستبد القاسى . جميع العيون تتجه فى حيرة نحو وجهى ، وجميع القلوب تتجه فى لهفة نحو صدرى . وجميع الناس تتراعى فى عبادة وتقديس عند قدمى . . . ولقد طالما قلت لهم إني الخير والشر معاً والضحك والبكاء معاً والحمر والدم معاً . والحياة والموت معاً . فلم يصدقونى . وأبوا إلا أن يروا فى وجهى رمز الفرحة الخالص الأبدى .

وها هم يتقاطرون على ويصبحون لى : « أنت السماء . أنت النعم » وأنا أسمعهم وأضحك ، وأغافلهم وأقتل ، وهم فى غمرة حلمهم وجنونهم لا يشعرون ولا يفقهون . ماذا أفعل كى انبهم . ماذا أفعل كى أحذرهم . أن قلوبهم تحترق ومع ذلك تصبو إلى . ودموعهم تنهمر ومع ذلك تغسل يدى . ودماءهم تسيل ومع ذلك ترتفع قرباناً إلى .. إنهم ضعاف ومساكين . . وأنا أريد أن أنقذهم . أن أمنحهم السعادة الخالصة التى بها يحلمون . ولكنى أعرفهم . ولو منحتم الكمال لاشتاقوا إلى النقص ، ولو وهبهم الراحة لاشتاقوا إلى العناء ، ولو أعطيتهم السعادة لهرعوا إلى الشقاء ، واستعذبوا مرارة النفس وتعاسة القلب وشهوة الدموع .

إذن لاحتفظ بجمودى الرائع وصمتى المهيب ولأضحك . . وما دمت متربعاً على عرشى . متلفعاً بضمى وإعراضى وسرى ، فسيدسنى كل قلب فى الوجود ويعبدنى . وسأظل أنا ، أنا الحب ، أنا الحب القادر الخالق الذى لا يضعف ولا يرحم ولا يموت !

أنا وحببي

« منذ أن عرفتك يا حبيبي عرفت نفسي . كانت روحى غريبة عني .
 وكنت أنظر إلى قلبي كما ينظر الإنسان إلى عالم مغلق مجهول .
 منذ أن عرفتك يا حبيبي عرفت سرى . كانت حياتى بعيدة عني .
 وكنت أنظر إلى الدنيا كما ينظر الطفل إلى كنز مسحور .
 وفجأة أشرق عقلى ، وعلمتني عينك كيف أصلى وأبكي . فخشعت
 أمام الله الذى أوجدك يا حبيبي ، ورأيت ماثلاً فى جمالك وألمى .
 ليتنى كنت ثمرة صغيرة لأذوب فى فلك . ليتنى كنت عطراً نادراً
 لأحوم حول بدنك . ليتنى كنت شهيداً لسانك ، ودماً لقلبك ، وماء
 قراحاً تغتسل فيه إلى الأبد قدماك .
 إني لأود أن أكون الشجرة القائمة فى حديقة بيتك . أود أن أكون
 غصناً من الشجرة ، أو ورقة من الغصن ، أو ظلاً من الورقة ، كى
 أتسلل إليك فى رابعة النهار ، وأداعب شعرك الناعم ، وأختلس من عينيك
 القاسيتين يا حبيبي ولو طيف قبلة ! »

هذا حسبي

« ماذا يهمنى إعراضك ودلالك
 ماذا يهمنى كبرك ونفورك
 أنا أحبك وهذا حسبي
 أعتقد أنك لا بد أن تحبنى كى أصبح امرأة . أعتقد أنك لا بد أن
 تشفق على كى أكون سعيدة . أنا امرأة بقلبي ، وأنا التى أشفق عليك
 أنت من نكران حبي ، وأنا التى أحبك وأعبدك وهذا حسبي ! »

إن حبك ليملاً صدرى بالهواء ، وعيني بالنور ، وساعدي بالعزم والقوة .

وما دام حبك يهني الحياة ، ففي أى شيء بعد ذلك يمكن أن أطمع ! ؟

يكنيني أن أراك وأغنى . يكنيني أن أرك وأرقص . يكنيني أن أراك وأنطلق وأخلق . .

الحب يا حبيبي طائر . ولكنه طائر إلهي . يستطيع أن يغني بمفرده حتى ولو مات من فرط غناؤه وهو يقطر حسرة ودماً على قرب الأليف ! . .

* * *

هذه بعض ألوان من شعر ماريا بوجارت . وهو شعر صورت فيه المرأة حسرتها على الحب وتوقها الدفين إلى الحياة . كما صورت فيه انتصارها على الضعف والمرض وفرحتها بالقوة والحياة . فشعرها كان هو ابنها الذي طالما تلهفت عليه ، وكان هو الثمرة الحية المباركة التي أعقبتها من زوا الفكر والروح وهي في الخامسة والستين من عمرها . .

رفاء امرأة

من حياة الأديبة الألمانية المجاهدة هيلين لانج

هيلين لانج امرأة ألمانية ولدت في مدينة أولدنبرج عام ١٨٤٨ ؛ ونشأت في أسرة فقيرة أهملتها ولم تستطع أن تنفق على تعليمها . ولكن الفتاة كانت قوية الإرادة ؛ مشبوبة الفكر ؛ حادة الذكاء ؛ نزاعة إلى الطموح والتفوق . فاتصلت بأحد القساوسة وتلقت على يديه أصول بعض العلوم ؛ ثم شرعت تدرس وتطالع وتثقف نفسها بنفسها حتى حذقت اللغات الأربع الألمانية والفرنسية واليونانية واللاتينية . فاستطاعت أن تقرأ وتستوعب الأدب الكلاسيكي الخالد ؛ وكذلك الأدب العصري الذي كانت تتمخض عنه شتى العبقريات في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا . بيد أنها لم تفكر في أن تكون أديبة . بل فكرت في أن تكون داعية ورسولا . فكرت في أن تكون مصلحة اجتماعية عظيمة ؛ تخدم بنات جنسها ؛ وترفع من شأن النساء في بلادها ؛ وتحرر المرأة الألمانية من القيد التي كانت تكبلها ؛ وتساوئها بالرجل في حق الثقافة وحق العمل وحق الحياة .. وكان تعليم البنات في ألمانيا إذ ذاك ناقصاً . فدخلت الجامعات كان محرمًا عليهن ؛ والوظائف الكبرى كانت وقفاً على الرجال ؛ والمرأة الألمانية كانت زوجة وأمّاً فقط ؛ تعيش عالة على الرجل ، وتعجز عن كسب قوتها إذا عصفت بها الأحداث وألفت نفسها بتيمة أو مطلقة أو أرملة . فحظ المرأة الألمانية هو الذي كان يشغل هيلين ؛ وهو الذي أرادت أن تكافح وتجاهد لتبدله . . . وهكذا عاشت الفتاة في بلدتها ؛ تتطلع إلى تحقيق حلمها ؛ وتتمنى لو استطاعت أن تسافر إلى برلين حيث يمكنها أن ترفع

الصوت عالياً ؛ وتبشر برسالتها ؛ وتطلق لمواهبها العنان . . . وعندئذ وقع لها حادث عجيب دل فوق نه غمها على ما كان يكمن في جوهر طبيعتها من شرف النفس ؛ وسمو الطبع ؛ وصدق العاطفة ؛ واستقامة المسلك والخلق . . . أحببت شاباً من طبقتها ؛ وأولع الشاب بها ؛ وتعاهدا على الزواج . فعكفت هيلين على تعنيم خطيبها ؛ وزودته بقسط وافر من ثقافتها ؛ وآلت على نفسها أن تستصحبه معها إلى برلين حيث يكافح كلاهما في سبيل الغاية النبيلة التي رصدت الفتاة حياتها من أجلها . . . وفجأة أصيب الشاب بمرض خبيث في عينيه ثم فقد بصره بين يوم وليلة وأمسى كفيفاً . فجن جنون هيلين ، ولم تعد تدري ماذا يجب عليها أن تفعل . أتقطع صلتها بالشاب الذي يحبها وتحبه إلى حد العبادة : أم تمضي في جهادها وهي زوجة لرجل أعمى ؛ فتحمل عبثين ؛ عبء الكفاح وعبء خدمة إنسان عاجز كفيف لا حول له ولا قوة ! . ولم تتردد وأجابت دعوة الحب وواجب الوفاء والتضحية واقتربت بالشاب . . . اقترنت بالشاب الكفيف ؛ ثم اشتغلت فترة في أحد المصانع . ولما توافر لديها مبلغ كبير من المال ؛ سافرت إلى برلين في صحبة زوجها ؛ وبدأت كفاحها المزدوج بهمة لا تعرف الكلل . . . كانت تخدم في البيت زوجها الأعمى كأنها أم رؤوم ؛ وتسعى في الخارج لتحقيق حلمها . . . اتصلت بالصحفيين والأدباء ؛ والوجهاء والعظماء ؛ وشرعت تكتب الدراسات والمقالات ؛ تدافع فيها عن حق المرأة في الثقافة العالية ؛ وفي التعليم الجامعي ؛ وفي الاضطلاع بأكبر وظائف الدولة . فسخر منها رجال الحكم ؛ وأوصدوا أبوابهم في وجهها . ولكنها لم تيأس وظلت تكتب وتخطب وتكافح ؛ حتى تولت رئاسة مدرسة للمعلمات ؛ ثم أنشأت بنفسها معهداً نسوياً للتعليم العالي ؛ ثم أصدرت عام ١٨٧٤ مجلة «المرأة» التي دأبت وانتشرت ونفذت إلى كل بيت في بضعة أسابيع . وإذا ذلك ؛ تنبه رجال الحكم إلى نقص تعليم المرأة في ألمانيا ؛ وتأثروا بالدعوة

الصادقة الحارة التي كانت تبشر بها هيلين ؛ ففتحووا للفتيات أبواب الجامعات الألمانية ؛ وأجازوا لمن الحصول على الدبلومات العالية توطئة لإدماجهم في سلك الإدارة وفي الوظائف الحكومية الكبرى . . . وخلق النجاح لب المرأة المجاهدة ؛ فأرادت أن تجاهد أيضاً وأن تتوج نصرها العظيم ببذل المستحيل كي ترد البصر إلى زوجها وحبيبها . فجابات مختلف بلاد أوروبا ؛ واتصلت بأشهر أطباء العيون ؛ وأنفقت وسخت عن طيب خاطر وملء نفسها الأمل في تحقيق النصر الكامل المنشود . . . وفي ذات يوم ؛ وبعد أن فحص طبيب سويدي مشهور بصر زوجها ؛ قال لها أن في وسعه أن يشفيه . فألقت إليه هيلين بكل ما كان معها من مال . فأبى الطبيب أن يتقاضى « ماركا » واحداً إلا بعد أن يخبره العملية للمريض ويستوثق من نجاحها . . . وأجريت العملية بالفعل ؛ وظل الزوج الكفيف رهين الحجرة السوداء أياماً طويلة ؛ كانت هيلين في خلالها تصوم وتصلى ؛ وتتقلب على مثل جمر النار ؛ وهي تبتهل إلى الله أن يتم نعمته عليها وينقذ قرينها وحبيبها . . . وكان أن وقعت المعجزة وارتد إلى الرجل بصره . فاختيلت هيلين ، وأحست أنها قد أحرزت النصر في جهادها الاجتماعي ، فاختيلت هيلين ، وأحست أنها قد أحرزت النصر في جهادها الاجتماعي . والنصر في حبها وحياتها الزوجية . فتناست رسالتها ، واستيقظت فيها شخصية المرأة ؛ وأرادت أن تعيش . . . أرادت أن تلهو وتمرح في صحبة زوجها . أرادت أن تتجمل وتبرج وتستمتع كالنساء بشئ ألوان الترف التي كانت لفرط انهماكها في العمل قد أعرضت عنها . وإكن زوجها المسكين ؛ زوجها المحروم ؛ زوجها الذي كان قد مات أعواماً عن الدنيا ؛ هو الذي ردها إلى صوابها ؛ وهو الذي ردها إلى كفاحها ؛ وهو الذي شجعها على مواصلة العمل في مجلتها ؛ وفي الكلية التي كانت ترأسها ؛ وفي وضع الكتب التي كانت قد شرعت في تأليفها . فعادت إلى التبشير برسالتها ؛ واستطاعت

أن تنشئ أكبر جمعية للمدرسات وأكبر معهد لتعليم المهن والحرف للبنات في ألمانيا . وهكذا أفنت المرأة حياتها في سبيل رفعة بنات جنسها . ولما تقدمت بها السن وحلت محلها في الجهاد إحدى تلميذاتها ؛ انزوت هي في بيت ريفي صغير ؛ وانقطعت لأعمال الفكر المجردة . وهناك بجوار زوجها الحبيب وتحته رعايته الغامرة ؛ وفي الضوء الساحر الحنون المنبعث من عينيه المتألفتين بالحب والوفاء والإخلاص وعرفان الجميل ؛ وضعت هياكل لانج مؤلفاتها الأربعة : « دليل الحركة النسوية » و « تطور التعاليم النسوية في ألمانيا » و « الفلسفة في شعر شيلر » و « دراسات في الأدب الفرنسي » . فاستكملت بهذه المؤلفات أيضاً نصرها ؛ وخلدت على مر الزمن اسمها ؛ ثم أصيبت فجأة بداء القاب ؛ وماتت بين ذراعي زوجها الذي تمزق قلبه وهالته وحدته المروعة في شيخوخته . فطفق يبكي امرأته ويصيح : لن أراها . . . أية قيمة لنور عيني إذا كنت لا أستطيع أن أراها ! . . . » وعاش الرجل في وحدته المظلمة ؛ يكتب عن هيلين ؛ وينشر مؤلفاتها ؛ ويعيش معها بالروح بعد أن فارقها الجسد .

فتاة من اليابان

من حياة الشاعرة اليابانية إيزومي شيكيبو

هذه القصة التاريخية العجيبة لم تقع حوادثها في شرقنا العربي ولا في أوروبا بل في اليابان بلاد الشمس المشرقة . والقصة صورة فذة لامرأة يابانية ممتازة ؛ تفوقت بعقلها النابغ وقابها الكبير . فاتخذت منها نساء اليابان قدوة رائعة ومثلاً يحتذى . ولدت هذه المرأة في أواخر القرن الثامن عشر . وكانت تدعى « إيزومي شيكيبو » وكانت امرأة خارقة الحسن ، وشاعرة عبقرية . نظمت الشعر وهي في العاشرة من عمرها . وأبدعت وهي في العشرين قصائد يعتبرها اليابانيون أعمالاً فنية خالدة . وكانت قد نشأت في أسرة ميسورة ؛ وأولعت فوق قرض الشعر بدراسة خصائص النباتات والأعشاب دراسة مكنتها من أن تصبح شبه طبيبة وأن تعالج بالنباتات والأعشاب رهط المرضى من فقراء الفلاحين الذين كانوا يعملون في مزرعة والدها . ولم تكن قد عرفت الحب والحنان في بيتها . فأما كانت سيدة متكبرة متغطسة لا هم لها إلا التأنق والتبرج وحب الظهور ؛ وأبوها كان رجلاً قاسياً طماعاً بخيلاً ؛ لا يتورع عن الكذب والمخاطلة بل والسرقة أيضاً كى يضاعف ثروته ويكتسب المال . فنشأت الفتاة النابغة تلحظ أهلها . وتراقبهم ؛ وتسجل عليهم الرذائل الفاشية في أخلاقهم . وتحس في صميم نفسها أنها أفضل وأسمى وأنبى منهم . وكانت تكره الكذب والنفاق ؛ والختل والمواربة ، والشح والبخل ؛ كما كانت تكره أى شاب تلمح فيه شبهة من هذه الصفات ، وتنشد لحياتها الزوجية رجلاً ممتازاً مثلاً ؛ يضع المبادئ فوق المصالح ، والحب فوق المال . . . وأثارتها صور الرذائل التي أبصرتها في بيتها ، فانطوت على نفسها ، وكفّت عن دراساتها الطبية ونظم

قصائدها ؛ ومضت تفكر في قلبها وروحها وفي أمير أحلامها المنشود الذي في مقدوره وحده أن ينقذها من بؤس وحدتها وظلمة حياتها . . . وشاء القدر أن يغامر والدها في مضاربة مالية كبيرة وأن يخسر ثم يسرق ليعوض خسارته . ففقد بين يوم وليلة كل ما يملك ؛ وأتى القبض عليه . فاسودت الدنيا في وجه الفتاة وأحست لأول مرة ذل الفقر وعار الفضيحة . . ولم تكن الشاعرة النابغة مخلوقاً ضعيفاً متواكلاً ؛ بل كانت إنساناً قوى العزم مشوب الإرادة . فهجرت بيتها ، والتحقت بمستوصف شعبي للنلاحين ؛ وشرعت تواسيهم وتخدمهم ، وتعالجهم بنباتاتها وأعشابها تحت إشراف طبيب . وهي لا تنفثاً تنظم الشعر في ساعات فراغها ، وتودعه كل ما يكنه قلبها من حسرة مرة وهم دفين . . وعاشت في المستوصف وبين المرضى ثلاثة أعوام بطولها ؛ وكادت أن تموت عن الدنيا وتيأس من الحب والزواج والحياة . وفجأة تبدل ليلها الحالك بنهار ؛ وأشرق الكون كله أمامها ؛ وأقبل عليها في لحظة لم تكن في حسابها ؛ شاب رأت فيه أمير أحلامها المنشود . . وبالفعل كان الشاب أميراً ؛ وكان يدعى « أتسوميكي » ، وكان الإمبراطور قد منحه لقب أمير وولاه على المقاطعة كلها . فأراد الأمير أن يزور منشأتها . فدخل المستوصف الشعبي ذات صباح ، وأبصر الفتاة ؛ وقيل له إنها أكثر من ممرضة وإنها طبيبة وشاعرة . فراحه منها حسنها الخارق ؛ وأدبها الوافر ؛ ومسحة الأسى البادية عليها . فهام حباً بها ؛ وطفق يتردد على المستوصف كي يراها . ثم بعث إليها يوماً برسول كاشفها بأن الأمير قد أعجب بها وأنه يطلب مقابلتها في قصره . وكانت الفتاة قد شغفت به هي أيضاً دون أن تتصور أن مثله يمكن أن يميزها ويحبها ويجرؤ على اعتراف تقاليد بيتته والاقتران بها . ومع ذلك فلأنه كان سيداً وأميراً فقد اعتقدت الفتاة اعتقاداً راسخاً أنه لا بد أن يكون مثال الصراحة والصدق ؛ ومثال الشهامة والنبل ؛ ومثال الشرف والاستقامة في الخلق والحب . فلما التقت به في قصره ،

أمنها على نفسها وبالغ في احترامها ، وأغدق عليها من صنوف الرعاية والعطف ما ضاعف إيمانها به وثقتها فيه وحبها له ، وأملها في أن يتسم القدر في النهاية لها ؛ ويرفعها على قدر عذابها ؛ ويجعل منها زوجة لهذا الرجل الذي بات في نظرها مثلاً أعلى . . . وكان الشاب قد ولى الإمارة منذ ثلاثة أسابيع فقط ؛ وكان قصره يبعد عن الضاحية التي فيها المستوصف بأميال . فلم يكن في الضاحية المأهولة بالفلاحين من يهتم بأن يعرف شيئاً عنه كى يرشد الفتاة إلى حقيقة حياته الخاصة . فعشقتة الفتاة وهى تجهله وأمعنت في الإيمان بخلقه وفضائله . وعبدته كأنه رب من الأرباب . . . وصارحها بحبه وعرض أن يتزوجها . فانتشت الفتاة وطربت . ولكنها لم تكدر تخرج من القصر على أن تعود إليه بعد أن تنهى النبا العظيم إلى أهلها ؛ حتى اعترضتها سيدة عجوز وأمسكت بها جاهدة . وقالت لها إن الأمير متزوج ، وأنه قد نفر من زوجته لأنها أصيبت منذ عامين بمرض عضال . وأنه قد أمر جميع من في القصر بإخفاء هذه الحقيقة حتى يتم قرانه الثانى على فتاة أحبها . . فذهلت الفتاة ولم تصدق . بيد أن العجوز اقتادتها من يدها ؛ وكبرت بها راجعة إلى القصر ، ودفعها نحو دهليز خفى ثم أدخلتها حجرة الأميرة المريضة الى كانت مسجاة على فراشها . . وأبصرت الفتاة امرأة حسناء قوضها المرض ، غائرة العينين ؛ شاحبة الخدين ؛ هزيلة هزالاً مروعاً . فدنّت منها وحدقت فيها . فنظرت إليها المرأة نظرة ممزقة ؛ وقالت لها وهى تتأوى والدموع تتفجر من عينيها : « هذه السيدة المسنة هى أمى ؛ والأمير الشاب هو زوجى ووالد طفلى ؛ وأنا أحبه ، فدعني لى وإلا أجهزت على وقتلتى أنت أيضاً يا أختى ! . . »

واوحت لها بالقلادة المقدسة التى تطوق عنقها والتى لا تحملها إلا من كانت زوجة للأمير . فأيقنت الفتاة أنها صادقة . فجمد الدم في عروقها وغشى عينيها التائهتين ظلام . . انهار في لحظة صرح آمالها . تحطم في

خفة مثلها الأعلى . لم تستطع أن تتصور أن حبيبها العظيم كان كاذباً ومنافقاً
كوالدها وأهلها . فاحترق قلبها . ومع ذلك فقد ثارت نفسها السمحة الظاهرة ،
وكبر عايتها أن تسرق رجلاً من زوجته ؛ وأن تقتل امرأة مريضة تحب
زوجها ؛ وأن تبني سعادتها على شقاء الغير . فتفرست في الأميرة البائسة
وجاشت في صدرها عاطفة غريبة . . . أشنقت على المرأة المحطمة مثلها .
أحست أن العذاب يجمع بين قلبيهما . وأن هذه المرأة قد أصبحت بالفعل
أختها . فأرادت أن تثار لشقاؤها هي بأن تنقذ على الأقل وتسعد زوجة حبيبها .
فلم تتردد ؛ وجست نبض المريضة . وأمرت أمها بأن تسرع إلى المستوصف
وتجنيها ببعض أعشاب ونباتات عيشها . . . ولبث الفتاة في الحجرة
مستخفية حتى عادت الأم تحمل الأعشاب . فغلتها الفتاة وسقت المريضة
منها . ثم عكفت على علاجها في عزم وذأب وإصرار . وفجأة ؛ وبعد
أن انقضت ساعات . تجلت عبقرية الشاعرة الطيبة الموهوبة ووقعت
المعجزة . تألق وجه المريضة وأبرقت عيناها الجميلتان ؛ وهبطت عنها غائلة
الحصى . وتم لها الشفاء . وعندئذ أهابت الفتاة بالأم أن تدعو الأمير .
فارتعشت العجوز وأحجمت . فاندفعت الفتاة نفسها صوب الباب .
وظفقت تنادى بأعلى صوتها صاحب القصر . فأقبل الأمير مستغرباً ومذعوراً
ولكنه لم يكذب ويدخل ويبصر امرأته مستردة قواها ومستوية على فراشها ؛
والفتاة التي اعتزم أن يتزوجها واقفة بالقرب منها حتى ذهل وبهت .
فعاجلته الفتاة بقولها وهي تزفر : « لقد شفيت امرأتك يا مولاي فعد إليها ،
واذكر دائماً أن الكذب إذا كان يعتبر ذنباً متى أقدم عليه رجل فهو
يعتبر جريمة إذا ارتكبه أمير . لن تراني بعد اليوم يا مولاي . إني راحلة ! »
وانطلقت كمعتومة . وودعت كل شيء : الأمل والحب ؛ الزواج
والأبناء . الجاه والسلطان ؛ وارتدت إلى المستوصف الشعبي ؛ حيث أذرت
شبابها وحياتها لنظم الشعر وخدمة المرضى من فقراء العمال والفلاحين .

دارالمعارف بمصر

تقدم مجموعة نفيسة من الكتب التي صدرت حديثاً :

* البارودي رائد الشعر الحديث (مكتبة الدراسات الأدبية)
للدكتور شوقي ضيف

٢٣٢ صفحة . قطع كبير الثمن ٦٥ قرشاً

* النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ (مكتبة الدراسات الأدبية)

للأب فيكتور شلحت اليسوعي

١٩٢ صفحة . قطع كبير الثمن ٤٥ قرشاً

* شعراء الرابطة القلمية (مكتبة الدراسات الأدبية)

(دراسات في شعر المهجر) للدكتورة نادرة جميل سراج

٣٨٨ صفحة . قطع كبير (طبعة ثنية) الثمن ٨٥ قرشاً

* المنتخب وشوقي (مكتبة الدراسات الأدبية)

(دراسة ونقد وموازنة) للأستاذ عباس حسن

٣٦٨ صفحة . قطع كبير الثمن ٨٠ قرشاً

* أبو جعفر المنصور (الخليفة العباسي) للأستاذ عبد السلام رستم

١٥٢ صفحة . قطع كبير الثمن ٤٠ قرشاً

* حسان بن ثابت (مجموعة نوابغ الفكر العربي)

للاستاذ محمد إبراهيم جمعة

١١٢ صفحة . قطع متوسط الثمن ٢٠ قرشاً

* الموازنة بين شعر أبي تمام والبحرّي لأبي القاسم الحسن الآمدي

(المجلد الثاني) تحقيق وتعليق الأستاذ السيد أحمد صقر

٣٧٦ صفحة . قطع كبير الثمن ٨٠ قرشاً

* ديوان البحرّي (الجزء الثالث) حققه وشرحه وعلق عليه الأستاذ

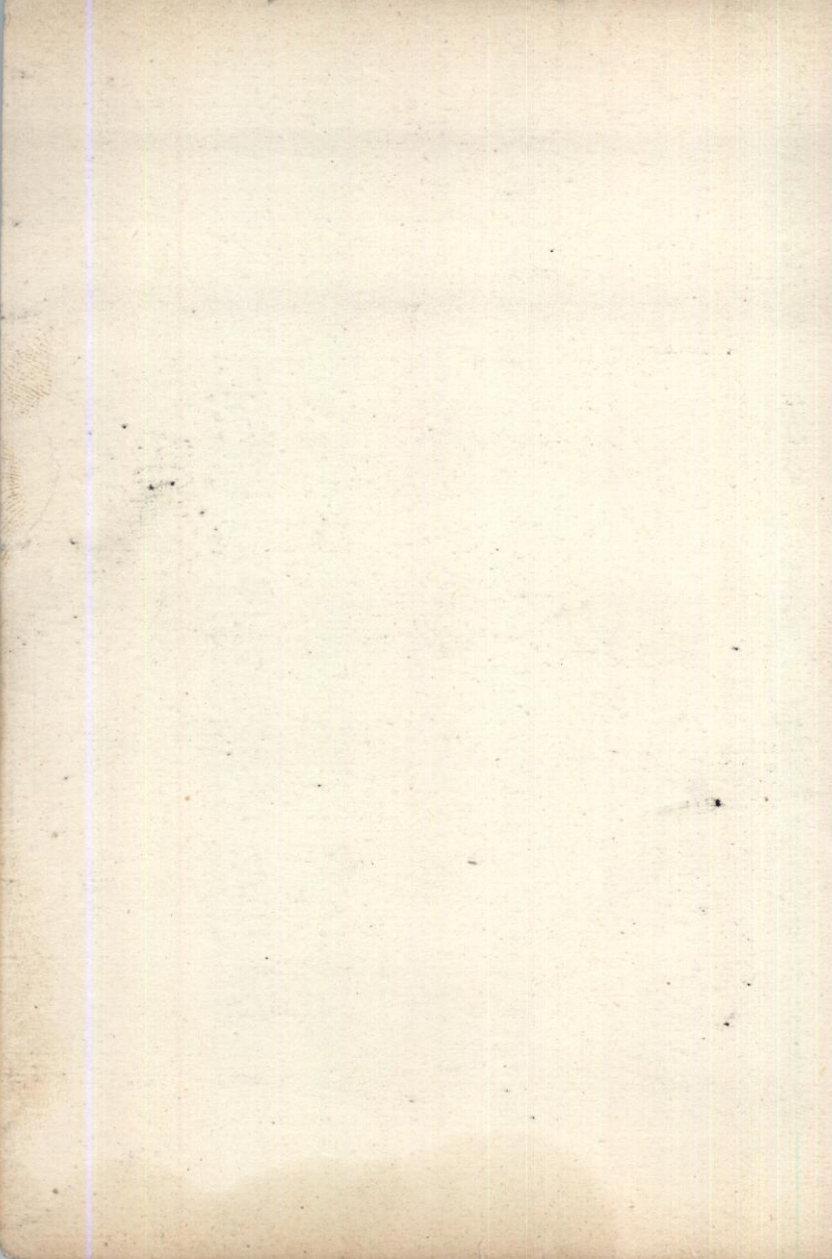
حسن كامل الصيرفي

٦٩٦ صفحة . قطع كبير الثمن ١٣٥ قرشاً

دارالمعارف بمصر

تقدم مجموعة نفيسة من الكتب التي صدرت حديثاً :

- * كيف نجح عبد الناصر تأليف ر. ك. كارانچيا
ترجمة الأستاذ خيرى حاد
الثنى ٣٠ قرشاً ١٨٤ صفحة . قطع متوسط
- * المسرح العالمى للدكتور لويس عوض
الثنى ١١٠ قروش ٥٢٠ صفحة . قطع كبير
- * تراجم الليل (شعر) للأستاذ على الجندى
الثنى ٨٠ قرشاً ٣٤٤ صفحة . قطع كبير
- * مولع بثاجنر (لبرنارد شو) ترجمه وتقديم الدكتور ثروت عكاشة
الثنى ٨٠ قرشاً ٣٢٤ صفحة . قطع كبير (٢٠ لوحة)
- * المطهر (الجزء الثانى من الكوميديا الإلهية)
للشاعر الإيطالى دانتي أليجييرى
ترجمة وتقديم الدكتور حسن عثمان
الثنى ١٢٠ قرشاً ٤٩٦ صفحة . قطع كبير
- * الفولكلور ما هو ؟ (دراسات فى التراث الشعبى)
للأستاذ فوزى العنتيل
الثنى ٥٠ قرشاً ٢٢٨ صفحة . قطع كبير
- * قصة فنن التشكيلى للأستاذ محمد عزت مصطفى
الثنى ٦٥ قرشاً ٢٣٦ صفحة . قطع كبير
- * الميثاق الوطنى فى صور للأستاذين عبد القادر الباز ويونس
وفتحى فوزى عبد المعطى
الثنى ٢٠ قرشاً ٨٠ صفحة . قطع كبير



دار المعارف بمصر

استجابة لطلب الجمهور المتزايد ليحصل كل قارئ
على نسخة من الكتب التي نفذت من سلسلة



قد انتشرت الدارخطة الجديدة لمواجهة نتائج هذا النجاج السامع،

فنقدم في منتصف كل شهر

طبعة جديدة من كل كتاب نفذ

صدر من هذه الطبقات الجديدة :

- أهلام شهر زاد (الكتاب رقم ١) للدكتور طه حسين
- المساواة في الإسلام (الكتاب رقم ٢٣٥) للدكتور على عبد الواحد وافي

بأسلوب اليوم و تفكير الغد